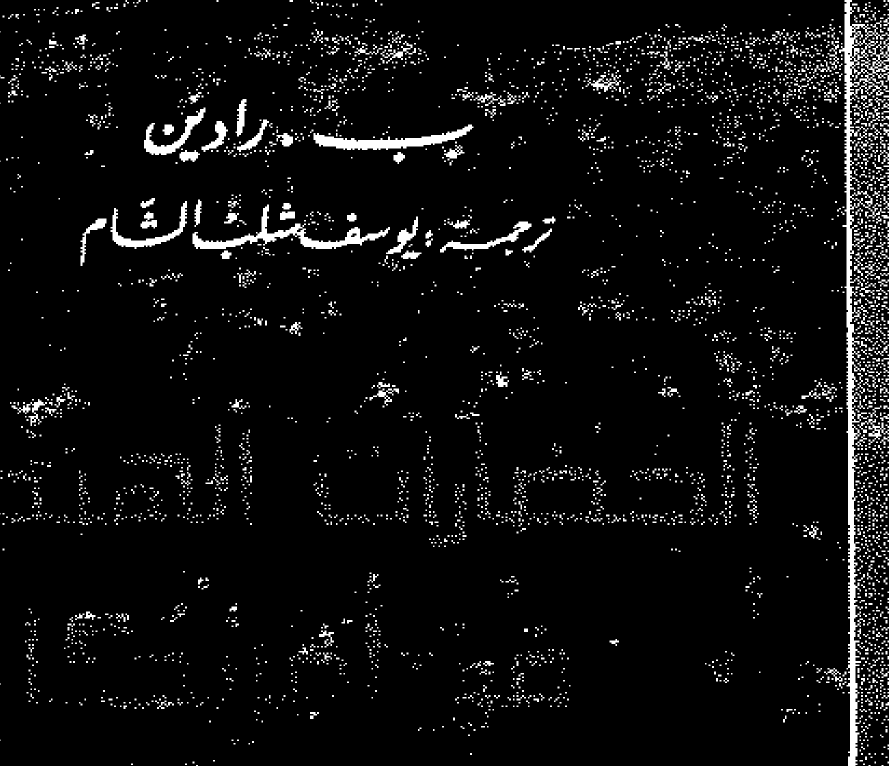


ب . رادين

ترجمة : يوسف شلب الشام

الحضارات الهندية في أمريكا

ب . رادين
ترجمة: يوسف شلب الشام

الحضارات الهندية في امريكا

(الأزتيك ، المايا ، الإنكا)

الحضارات الهندية
في امريكا

الطبعة الأولى ١٩٨٩
دار المنارة
للدراسات والترجمة والنشر
الجمهورية العربية السورية
اللاذقية ص.ب ٨٢٢ هاتف ٢٦١٢٢

١٠٠٠ / ٨ / ١٩٨٩
طبع في مطابع دار العلم
التنضيد الضوئي :

توطئة

يتنـاول هذا الكتـاب حضارة الهنود في أمريكا الوسطى والجنوبية والمكسيك مما عرف في أذهان الناس بحضارات المايا والأزتك والإنكا مع كل ما مثلتـه هذه الحضـارات من عظمـة وتوهج في فنون البناء والنحت والنقش والصيـاغـة والخزف والأدب والكتـابـة الهير وغليفية والحساب والفلك والأسـاطـير . ثم ينتقـل في القسـم الثاني إلى حديث طويل عن تأثير هذه الثقافات بهنود أمريكا الشمالية الذين وجدهم الأوروبيون عند وصولهم في حالة من الصيد والالتقاط وبعض الزراعة ووجدوا في بعض منـاطقهم وبخـاصة على طرفي وادي الميسيسيبي الأدنى تلالاً صناعية MOUNDS تخفي تحتها آثار حضارة حاول المؤ لف أن يردها إلى مؤ ثرات قدمت إلى هذه المنـاطق من ثقـافـة المايا والأزتك كما حاول أن يرد كثيراً من العبـادات والمقـدسـات والأفكـار والعـادات والأسـاطـير إلى تلك الحضـارة لأنها تدل على ذكرى بعيدة ما زالت تسمع أصداؤ ها في عقول هؤ لاء الهنود الحمر وتصرفاتهم .

ولما كان هذا القسم الثاني من الكتاب الذي يحاول فيه المؤلف أن يظهر مؤثرات حضارات المايا والأزتك في هنود أمريكا الشمالية يهم الأمريكيين أكثر مما يهم غيرهم من الشعوب وبخاصة نحن المتكلمين بالعربية فقد اقتصرت على ترجمة القسم الأول من الكتاب الذي يتعلق بالحضارات الأم : حضارات المايا والأزتك والإنكا لأهميتها القصوى في تاريخ الإنسانية وما تطرحه من تساؤلات حول أصولها ومدى صلاتها بحضارات العالم القديم .

على أن المؤلف استعجل في كتابة الأحداث فجعل الفصل الأول منه توطئة لما جاء في القسم الثاني من الكتاب واصفاً بعض المظاهر الحضارية والآثار العمرانية التي كشفت في امريكا الشمالية وأشار إلى أن هذه الحضارة المتقدمة المندثرة لا بد أن تكون قد قامت بتأثير من حضارات الجنوب ، وقراءة هذا الفصل تغنينا على كل حال عما أهملت ترجمته من الكتاب .

● المترجم

مقدمة

حاولت في هذا الكتاب أن أصف بطريقة مبسطة حياة الهنود الأمريكيين وتاريخهم في ملامحها البارزة، فالموضوع اذن هو موضوع شرح وايضاح لا مجرد عرض وسرد للأحداث. ووجهة نظري فيما قمت به هي التالية: إن تاريخ أمريكا الوطنية (أي أمريكا قبل أن يصل إليها الأوروبيسون) لا يمكن تفسيره إلا بانتشار الحضارات الكبرى التي تقدمت وتطورت في المكسيك وأمريكا الوسطى وعلى طول الساحل المطل على المحيط الهادي من أمريكا الجنوبية ما بين بيرو والإكواتور. ولا أعتقد ان صواب هذا التأكيد يمكن أن يكون حتى الآن موضع نزاع جدّي، سيما وأن هذه النظرية لم تعد أصيلة طالما سبقني إليها كثيرون من علماء الأجناس.

ولقد سعيت لأن أقدم الوقائع دون تشويه، وأن أصف قبائل خصصت كلاً منها، وبطريقة نموذجية، بما تحمله من سمات من الثقافات الأمريكية.

وقد ادعى بعض النقاد عندما ظهرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب أني لم أكن عادلا بالنسبة للثقافات الأقل تطوراً لأنني عزوت كل ما أنجزته من عمل عظيم إلى النفوذ المباشر أو غير المباشر لحضارة المكسيك وأمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية . إلا أن أعمال السنوات الأخيرة أكدت وجهة نظري بأكثر مما كنت أنتظر . وحتى بعد أن أصبح من البديهي أن الحضارة الهندية في الجنوب الغربي من أمريكا هي أقدم بكثير مما ذهب الظن إليه في بادىء الأمر فإننا نلاحظ في كل يوم أن تطورها الأولي إنما تم بتأثيرات جلية من المكسيك .

أما الأبحاث الأركيولوجية في وادي مكسيكو والمناطق المجاورة ، تلك الأبحاث التي جرت في السنوات السبع الأخيرة ، فقد قلبت كل ما كان لدينا من مفاهيم . فنحن نستطيع الآن أن نعود بتاريخ هذه الأراضي حتى عام ١٠٠٠ق . م . وقد تم اثبات أن حضارة الشعوب المسماة بالتولتيك TOLTÈQUES ليست إلا واحدة من عدة طبقات أثرية متراكمة بل هي الطبقة الأقرب إلينا من بينها .

ولكن هذه الاكتشافات الحديثة ، على الرغم من أنها لم تؤد إلا إلى زيادة التعقيد في اللوحة التاريخية ، فإنها لم تعدّل من نظريتنا الأساسية . قد يمكن أن يكون ما عالجته من المؤثرات القديمة للمايا في الولايات المتحدة الأمريكية يدلّ على أنها أتت من جنوبي المكسيك ، ولكن الأمر لا يتعدى ذلك ولا يبتعد عنه .

أما في الموضوع الذي طال النقاش فيه عن نموذج الثقافة التي كان يملكها هنود الولايات المتحدة الأمريكية قبل أن تنتشر بينهم العناصر الثقافية الأعلى التي وصلت إليهم من المكسيك فإننا نستطيع أن نؤكد الآن على أنه بالرغم من أن هذه الثقافات لم تكن تستند على قاعدة زراعية فإن بعضها كان حقاً أكثر تعقيداً مما كان يظن حتى اليوم .

فمن المحتمل جداً أنه في زمن قديم كانت تمتد حضارة موحّدة نسبيا تعرف صناعة الفخار ووصلت إلى مستوى عال في السياسية والدين . كانت تمتد على كل أمريكا الشمالية من الساحل الشمالي الغربي لكندا عبر السهول حتى البحيرات الكبرى ، ثم على طول المنطقة الواقعة إلى الشرق من المسيسبي مجتازة البحر الكاريبي وواصلة إلى الشمال الشرقي من أمريكا الجنوبية . ولا بد أن مثل هذه الحضارة ستكون قادرة على أن تؤثر بطريقة شخصية في كل نفوذ واندفاع يأتيها من حضارات الجنوب الكبرى ، وهذا ما يمكن أن يفسر لنا مثلا قابلية ثقافات الماوند « MOUNDS» على التغير والتحول كما يفسر قدرتها على التطور الذاتي .

ومسألة المصطلحات هنا مسألة شائكة كما هي في كل الكتب التي تحاول إيصال الموضوعات العلمية للشعب . ولقد تمكنت من حلها دون التعرض لتناقضات كثيرة في معالجتي للموضع ، وإذا فاتتني بعض المصطلحات الاختصاصية فإنني أرجو من قرائي غفران ذلك وأن يعودوا إلى هذه المصطلحات في التعريفات التي قدمتها في أماكن مختلفة من هذا الكتاب .

● بول رادان

الفصل الأول

نظرة أولية على العالم الجديد

كان الناس يظنون في العصور الوسطى أن نهاية العالم ستأتي بعد ألف عام تماماً من مولد السيد المسيح . وفي نهاية هذا العام الألف، وحيث كانت أنظار الناس تنتظر هذه النهاية المحتومة، كُشف لهم عالم جديد. فقد ألقت العواصف بملاح نروجي كان يتجه من النروج إلى غروئنلندا على أرض لم يكن قد سمع عنها قبل ذلك قط. وهنالك وجد حقولاً من «الكرمة» ومن «القمح» الوحشي.

كان اسم هذا المغامر ليف إريكسون الذي اكتشف امريكا وجنساً بشرياً جديداً هو الهنود. إلا أنه لم يكتب لليف إريكسون هذا ـ كما لم يكتب لموسى من قبله ـ أن يدخل حقاً إلى الأرض الموعودة. وبعد ثلاث سنوات ذهب ثلاثة من أقرانه هم ثورفين كارلسيفني، وثورفالد ـ وهو أخ غير شقيق للأول ـ، وصديق لهما يسمى ثورهال، ذهبوا ليكتشفوا «الفردوس المزروع بالكروم» الذي وصل إليه ليف من قبل. وتقول لنا الأسطورة(Saga) النرويجية القديمة إن ثورهال كان «عريض

المنكبين، أسمر اللون ذا قامة عملاقة. كان رجلاً قليل الكلام وإن كان قادراً على الشتيمة عندما يتكلم. وكان مسيحياً سيئاً ولكنه واسع الاطلاع في موضوع المناطق غير المسكونة من الأرض».

إلا أن ثورهال ما لبث أن مات عند سواحل إيرلندا، بينما تابع رفيقاه مسيرتهما. وبعد إبحار طويل أقلعا نحو الجنوب حتى وصلا إلى نهر نازل من الداخل بعد أن اجتاز بحيرة كبيرة قبل أن يصب في البحر. وهنا ـ كما تقول لنا الساغا (أي الاسطورة) «رأيا في صباح أحد الأيام، في دغشة منه، عدداً كبيراً من المراكب المصنوعة من الجلود كانت ترتفع منها هراوات تصدر عنها ضجة قتال مرعبة وتتجه في جهة الشمس نفسها.. وفي هذه المراكب كان يجلس رجال ذوو مظهر بشع وشعور منفرة. وكانت عيونهم كبيرة ووجناتهم عريضة. وقد توقفوا طويلاً وهم يراقبون الرجلين اللذين ظهرا أمامهم ثم ما لبثوا أن ابتعدوا وهم يجذفون نحو الجنوب».

تلك كانت أول مقابلة بين الأوروبيين وبين الوطنيين من القارة الأمريكية. وليس بامكاننا حالياً أن نحدد على وجه الدقة من كان هؤلاء السكرايلنغ كما كان يسميهم النورجيون، فقد كانت البلاد التي قضى الشتاء فيها مواطنا ليف تمتد ما بين لابرادور وانكلترا الجديدة، فهي مسكونة إذن بالأسكيمو والهنود. إلا أن أسطورة أحدث من الأولى وأضعف ثقة منها تقول إن النروجيين تقدما حتى خليج تشيزابيك ومضيق فلوريدا

فإذا كان هذان المغامران قد توقفا لدراسة هذه الشعوب الغربية التي لقياها فإن لذكي منهما كان لا بد له من أن يفاجأ بالخلافات العميقة في اللغات والثقافات التي تفصل بين هذه الشعوب، هذا إذا لم تلفت نظره خلافات جوهرية أخرى أيضاً.

وهكذا فإن الأقرب إلى الصواب أن النروجيين كانوا يعرفون من بين هذه الشعوب الأسكيمو وحدهم. فغرونلندا كانت قد اكتشفت في مطلع القرن العاشر الميلادي. ولا بد أن الأسكيمو الذين كانوا يسكنون فيها قد أعلموا الغزاة البيض بأن لهم أقارب في لابرادور. وما لم يكن النروجيون يحسبون حسابه هو أن هؤلاء الأسكيمو كانوا يسكنون كل القسم الشمالي من القارة الأمريكية ما بين لابرادور حتى جزر أليوسيين، وأن هؤلاء الأسكيمو - باستثناء هجرات حديثة نسبية إلى ساحل المحيط الهادي وإلى المنطقة التي تمتد إلى الشمال من البحيرات الكبرى - كانوا يتقدمون نحو الجنوب حتى خليج سان لوران.

واليوم يعيش في كل هذه المنطقة شعب وطني من الأسكيمو لا تزال ثقافتهم بدائية جداً. أما أن تكون في ماضيات الأيام أكثر رقياً مما هي عليه اليوم فذلك ما يحق لنا أن نشك فيه. ومع ذلك فإن هذه الثقافة مهما كانت بسيطة، ومهما بدت كذلك في الماضي، فإنها تبقى النموذج الكلاسيكي التقليدي الخاص المكثف بين كل الثقافات البدائية بوجه عام. ونحن لا نجد في أي مكان من العالم وبخاصة في أمريكا شعباً وطنياً ربط كل أوجه وجوده ربطاً كاملاً ببضع مبادىء متينة الأركان مثل هذا الشعب. فهم لا يملكون أي عنصر أساسي من عناصر الثقافات الوطنية الأكثر تقدماً كالزراعة وصناعة الفخار والنسيج والعبادات المعقدة والتنظيم الاجتماعي المتطور. ومع ذلك فإنهم - بالقليل الذي يملكون - أمكنهم أن يتوصلوا إلى وحدة لم نتمكن من العثور عليها في بقية انحاء القارة الأمريكية.

وإلى الجنوب من الأسكيمو ما بين ساحل الأطلسي حتى مقاطعة مانيتوبا في الغرب قابل كارلسيفني شعباً يسمى ألغونكان يتكلم لغة مختلفة عن لغة الأسكيمو ولم تكن ثقافته أقل خشونة من ثقافتهم

ولكن مع شيء من التغيير . كان شعباً يمتلك معرفة بدائية عن الزراعة وصناعة الفخار. وفي عام ١٠٠٠ للميلاد كان كثيرون من هؤلاء الألغونكان قد دخلوا في علاقات مع بعض القبائل الأكثر تحضراً في الجنوب. وهكذا نستطيع ان نؤكد بكل ثقة أن كثيراً من هؤلاء الهنود كانوا قد وصلوا إلى أحوال معيشية هي التي لاحظها بعد ستمائة من الأعوام أوائل المستعمرين الذين أتوا ليستقروا في ماساتشوستس وكونيكتيكوت . ويبدو لنا بمثل هذه الثقة أن الألغونكان كانوا ينتشرون على طول ساحل الأطلسي ما بين إنكلترا الجديدة وفرجينيا .

أما في فيرجينيا فتتغير اللوحة تماماً، فهنا نحن أمام شعب جديد يتمتع بحضارة أكثر تقدماً. ومن بين الكثير من الأعراض التي تنبئنا عن ذلك نلاحظ مستوى من المعيشة أكثر غنى وأكثر تعقيداً وتنويعاً، فهنا توجد قرى حقيقية محاطة بسياجات من القصب للدفاع عنها، كما توجد بساتين معتنى بها تنبت فيها الذرة والفاصولياء والقرع والتبغ . فلو أن النروجيين سألوا الوطنيين لعلموا أن سكان هذه القرى كانوا يقيمون الكثير من الاحتفالات المعقدة وان نظام الحكومة الذي يطيعونه كان شديد الغرابة والتعقيد. والواقع أن هؤلاء الناس كانوا ـ كما نعلم اليوم ـ أعضاء من عائلة السيو SIOUX الكبيرة الانتشار. وأنهم لم يكونوا ـ إذا توخينا الدقة في التعبير ـ وطنيين محليين وإنما كانوا يمثلون فرعاً من مجموعة بشرية مسكنها الأصلي يقع على بعد كبير إلى الغرب والجنوب، فهناك على ضفاف نهر الأوهايو وحتى مصب الميسيسبي كان هؤلاء السيو قد احتكوا بجنس مدهش تضرب حضارته في أبعاد أكبر من الماضي ، إذ أن هذا الشعب العجيب كان قد لعب قبل ألف عام دوراً من الدرجة الأولى باعتباره أول من تلقى الحضارات القديمة الأولى من المكسيك ومن المكسيك الوسطى . وقد أعطى السيو كثيراً

من عناصر هذه الحضارة إلى سكان شواطىء الأوهايو والميسيسيبي القدماء، وان كان البعض يدعي انهم احفاد هؤلاء السكان.

والخلاصة أن هؤلاء السيو الشرقيين كانوا شعباً مثيراً للاهتمام، والنفوذ الذي مارسوه على جيرانهم من الشعوب الأثر خشونة وبدائية لابد أن نكن له الكثير من الاحترام. وفي حوالي العام ١٠٠٠ للميلاد كان بعض قبائل الألغونكان قد اندفع نحو الجنوب حتى فيرجينيا وساهم مساهمة كبيرة في الحضارة التي أتى بها السيو من الغرب. ومن المحتمل أن درجة التطور المرتفعة التي لاحظها الكابتن جون سميث في جيمس تاون عام ١٦٠٧ لدى البوكا هونتاس إنما تعود أيضاً إلى العام ١٠٠٠ للميلاد.

فاي نوع من الحياة كان يمارسه هؤلاء السيو؟. فلنتوقف قليلاً لنقدم بعض صفاتها لأنها من عدة وجوه تعطي السمات المميزة لأكثر من نصف سكان الولايات المتحدة من الوطنيين، وإن كانت لا تمثل أوج الحضارة الهندية إلى الشمال من ريوغراند. ففي مناطق أخرى كما هو الحال في الجنوب الغربي ونيومكسيكو وأريزونا ازدهرت طقوس وتقاليد أكثر غنى وتعقيداً، وبلغ فن البناء والنسيج وصناعة الفخار درجة من الكمال لا يمكن أن يقاس بها شيء مما أنتجه السيو، ولكن خصوصية هذه الشعوب الجنوبية الغربية نفسها تمنعها من أن تكون على مستوى السيو من حيث نموذجية التمثيل.

هنالك عنصران يميزان حضارة السيو ويعطيانها طابعها، أولهما الأهمية المعطاة للزراعة، وثانيهما التنظيم الخاص بالمجتمع. وكل ما يحتويه هذا التنظيم من ثبات إنما مرده الزراعة، مرده الذرة. ومع ذلك فإن زراعة الذرة لم تسيطر على حياتهم سيطرة كاملة كما هي الحالة لدى أقاربهم البعيدين جداً الذين يسكنون إلى الجنوب منهم تماماً أو لدى

الشعوب التي تعيش في الجنوب الغربي. يضاف إلى ذلك أن عنصراً جديداً كان قد نفذ إلى حياتهم هو البيزون (الثور الوحشي الأمريكي)، ذلك لأن صيده ادخل فيها تعديلاً عميقاً فحولهم شيئاً فشيئاً من أناس كان أجدادهم مزارعين حقيقيين إلى شعب لا يعدو أن يكون نصف حضري.

وقد تشكلت حول البيزون مع مرور الأيام تداعيات لا حصر لها من الصور والأفكار. فتركز خيال هؤلاء الهنود كما تركزت محبتهم بشكل يتزايد يوماً بعد يوم على هذا الحيوان الرائع واندمجت به الحياة القبلية كلها، فلم يصبح العنصر الأساسي في حياتهم فحسب وإنما جرى استخدامه لغايات أخرى، فكل ما كان له علاقة بهذا الحيوان أصبح ذا منفعة بهذا الشكل أو ذاك حتى أصبح مركزاً للرقصات والاحتفالات وغدا الموضوع الرئيسي للأغاني والأساطير.

إلا أنه كان لصيد البيزون نتائج أخرى، من بينها الصدام مع الأعداء. ومن أجل تجنب أخطار مثل هذا الصدام أصبح الصيد مشروعاً جماعياً حقاً، إذ أصبح كل الأعضاء القادرين من القبيلة يشكلون عصبة وجب عليها أن تتبع نموذجاً جديداً من التكتل لكي يكون تعاونها أكثر جدوى. وهكذا بدا كثير من القواعد القاسية التي كانت تطبق في القرى وكأنها لا فائدة منها أثناء مسيرة الصيد فوق الأراضي المكشوفة. فتشكلت مع الزمن مجموعة جديدة من القوانين رأت القبيلة أنه لا بد لها من مراعاتها أثناء الصيد.

ومع ذلك فغالباً ما كان مفيداً أن تتحالف القبيلة مع القبائل الصديقة أو تقيم السلم بينها وبين القبائل المعادية. وهكذا يصبح من الخطأ أن نشير فقط إلى مثالب هذه المغامرات الجماعية الكبرى، فبدلاً من فروات الشعر المسلوخة عن جماجمها وبدلاً من الأسرى أصبح الهنود

يعودون من رحلاتهم دائماً مع أشياء وأفكار وأغان واحتفالات كانت مجهولة لديهم حتى ذلك الوقت. وبذلك أصبح صيد البيزون المركز الذي تشع منه مؤثرات جديدة سواء كانت بناءة أو هدامة.

وبهجرهم لسيدهم القديم «الذرة» تحول الهنود إلى سيد جديد هو البيزون. وكان الأول يمثل الإرث القديم المتبلور الثابت المتأصل في قلوب الجميع، بينما كان الثاني كشفاً جديداً أغنته ذكريات الأخطار الدائمة والانتصارات المنجزة وتتغير ميادينه من عام إلى عام بشكل مستمر. وهكذا أصبحوا الآن يلزمون القرية نصف العام فقط، بينما يقضون بقية الوقت في الصيد. وفتنة هذه الحياة الجديدة في البراري كانت غامرة. وبقي البيزون منتصراً وحده، أما الذرة فهي حقاً لم تختف من حياتهم اختفاء تاماً ولكن اهميتها تناقصت بسرعة ثم ما لبثت أن نحيت جانباً عن المجرى الحقيقي للحياة.

ولكن إذا كانت سيادة الذرة قد انتهت فإن التنظيم الاجتماعي والرقصات والأغاني التي لا حصر لها، أي كل المظاهر التي كان قد خلقها هذا النبات بقيت كلها سالمة دون تغيير كبير.

وتنقسم القبيلة عند السيو إلى عدد من الزمر تكون كل منها أوسع من العائلة وتحمل اسم حيوان. فثمة مثلاً زمرة الذب وزمرة النسر وزمرة الأيل إلى غير ذلك. ولا يجوز لأفراد الزمرة الواحدة أن يتزاوجوا فيما بينهم ويعتبر كل فرد جزءاً من زمرة أبيه. أما في قبائل أخرى وبخاصة في الجنوب فإن الفرد ينتمي إلى زمرة أمه، ويبدو أن هذه كانت حالة السيو أيضاً في وقت ما مما مضى من تاريخهم. ويعتقد أتباع هذه الزمر أو العائلات الكبيرة أنهم أحفاد الحيوان الذي يحملون اسمه ويظهرون تجاهه كل آيات التبجيل والاحترام. كما يعتبرون أنفسهم متحدين برباط من القرابة لا تنحل عراه.

على أن كل ما ذكرناه ليس إلا مظهراً واحداً من تعقيد نظامهم الاجتماعي. فهذه الزمر أو العائلات الكبيرة تتكتل في وحدتين أكثر اتساعاً تتمايزان على أشكال مختلفة بحسب القبائل. فأحياناً تُسميان السلم والحرب، أو الصيف والشتاء، أو العالي والواطىء أو الأرض والسماء. وهذا التجمع المؤلف من جزئين كان هاماً بمقدار ما كانت هامةً قسمةُ قرى السيو من الناحية المكانية إلى قسمين كان كل من الجزئين يحتل واحداً من هذين القسمين المميزين. والعلاقات التي كانت توحد بين هاتين المجموعتين كانت مثيرة للفضول، فأفراد المجموعة الواحدة منها لا يستطيعون التزاوج فيما بينهم، كما أنه عندما يموت واحد منهم يجب أن يدفن على يد فرد ينتمي إلى المجموعة المقابلة. وأخيراً فإنهم عندما يلعبون لعبة الكرة والعصا التي تحتل مكانة الشرف لدى هؤلاء الهنود فإن من المهم أن يسعى كل من الطرفين لأن يحصل على الانتصار.

وكما هو شأن النظام الاجتماعي كذلك كانت الرقصات والطقوس والاحتفالات معقدة أيضاً. فهنالك بطبيعة الحال رقصات الذرة ورقصات البيزون، ولكنهم كانوا يحتفلون عدا عن ذلك برقصات يقيمونها على شرف مختلف الحيوانات العائلية وغيرها من الأرواح والكائنات الإلهية.

أما الرقصات التي تقام على شرف الأرواح التي تتراءى في الحلم لأحد الأفراد فإنها ترتدي أهمية خاصة. ففي كل أمريكا الوطنية، ما عدا بعض الاستثناءات النادرة، يسلم الهنود أنفسهم للصوم والصلاة ليتراءى لهم في الحلم روح من الأرواح. أما الذين يتراءى لهم في حلمهم نفس الروح فيتجمعون ويشكلون فيما بينهم جمعيات سرية يُبعد عنها الآخرون. وفي هذه الجمعيات يوجد دائماً أربعة أماكن

مقدسة يحمل كل منها اسم أحد الكائنات الإلهية التي تحكم الجهات الأصلية الأربع . وكانت هذه الكائنات الإلهية موضع عبادة في كل أنحاء أمريكا من يوكاتان حتى الشمال من كندا حيث يكنون لها احتراماً خاصاً في كل مكان . ومع ذلك فإن الأهم من هذه الاحتفالات كلها كان ذلك الذي يتم في الشتاء على شرف مجمع الآلهة كلهم ، فهنا يبلغ الشعور الديني أوجه حتى ليكاد يوصل إلى الهيجان . وأخيراً فإن كل مجموعة من الطقوس والرقصات تتركز حول بعض الأشياء المقدسة التي كان من أشهرها العمود المقدس رمز الصحة والحياة بالنسبة للجميع .

ذلك ما كان يجب أن تكون عليه حياة السيو من الهنود ـ في ملامحها العامة ـ في نحو من العام ١٠٠٠ للميلاد . فإلى أي مدى تتضح في هذه الملامح المراحلُ الرئيسية التي قطعتها الحضارة الوطنية الأمريكية؟ . هذا ما سنراه عندما نكمل وصفنا للرحلة التي يعزوها بعض المؤلفين لخلفاء ليف إريكسون .

إلى الجنوب من فيرجينيا بعيداً إلى الداخل كان يعيش شعب آخر كان يقع دائماً تحت ضغط السيو، وهذا الشعب هم الشيروكي الذين يتكلمون لغة مختلفة عن كل من رأيناهم حتى الآن على الرغم من قرابتها البعيدة للغة قبائل التكساس من الكادو KADDO . وهؤلاء الأخيرون معروفون منا عن طريق ممثليهم المحدثين الذين هم الباوني . ويمكن مع ذلك أن تكون لغة السيو مرتبطة ارتباطاً بعيداً جداً بلغة الشيروكي . أما حضارتهم فلا تختلف اختلافاً أساسياً عن حضارة السيو بسوى أن البيزّون لا يلعب إلا دوراً ثانوياً في حياتهم الاقتصادية ولم يلهم خيالهم أي إلهام . أما التوسكارورا أقرباء الشيروكي فلم يكونوا يعيشون بعيداً عن هذا المكان ، بينما بقية القبائل التي تمت لهم بصلة القربى من أمثال الإيروكوا المشهورين فكانت تحتل مناطق الغرب

والشمال. وفي نحو من عام ١٠٠٠ للميلاد كان لا بد لها من أن تستقر استقراراً كاملاً في مواطنها التي وجدناها فيها في القرن الثامن عشر أي بنسلفانيا وولاية نيويورك.

في هذه المنطقة كلها كانت الذرة هي العنصر الحيوي، بينما حل لدى الشيروكي وأقربائهم تعديل لهذا الوضع. فشعوب الإيروكوا في اندفاعتها النشيطة عبر السهول من الجنوب إلى الشمال شعرت بالحاجة إلى تنظيم تبنت فيه الحياة الحربيسة التي كانت تمارسها من خلال اندفاعتها على الدوام. ونجم عن ذلك إذن انتقال في اهتمامهم الاساسي حيث تطورت لديهم حضارة حربية من الدرجة الأولى وأصبحت الحرب غاية يسعون إليها لذاتها، وسنرى عما قريب كيف أن الإيروكوا سيتبنون سياسة توسعية امبريالية شبيهة بسياسة الأزتك في وادي المكسيك. ومن هذه الجهود سيظهر الاتحاد الشهير الذي كان مؤسسه هياواثا HIAWATHA النصف أسطوري، هذا إذا لم يكن هذا الاتحاد قد ظهر فعلاً خلال هذه الفترة التي نعالجها. وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى شيء من الانحطاط في الزراعة. فهنا كما لدى السيو نجد سيدان، ولكن بينما كان صيد البيزون لدى هؤلاء الأخيرين هو الذي قطع كوادرهم الزراعية القديمة فإن ما قطعها لدى الإيروكوا كانت حاجتهم إلى تنظيم حربي حكومي أكثر فعالية يستطيع أن يتم عملية التغيير.

وإذا تابعنا مسيرتنا نحو الجنوب فإننا نصل في النهاية إلى سواحل جيورجيا وفلوريدا حيث نجد قبائل جديدة ولغات جديدة. وفي عام ١٠٠٠ للميلاد كانت الشعوب التي تسكن هذه المناطق، كالشوكتاو والكريك والتيموكوا، كانوا كلهم غزاة جدداً قدموا من حوض الميسيسيبي الأدنى، وكانت ثقافتهم في جوهرها شبيهة بثقافة السيو

الـذين تربطهم بهم أيضـاً قرابـة لغوية . ومع ذلك فإن حياتهم في بعض الأمـور كانت تذكـرنا بحياة أجداد السيو لأن الزراعة بقيت لديهم همهم الأول . وكـانت المدن هنـا أكثـر تطـوراً وفيهـا نزعـة إلى الاتحاد ضمن اتحادات دفاعية دون أن تؤدي مثل هذه الاتحادات إلى روابط وثيقة وفي الحـالات التي لا تكـون هي نفسهـا في حالة حرب فيما بينها ، ومع ذلك فإننـا لا بد من أن نسجـل أن الكـريـك وأقـاربهم كانوا منذ ألف عام ، وعلى العكس من حيـاة السيـو المسـالمـة في الشرق ، كانوا فريسة لذهن عصبي قلق ، وإن هذا لا يدهشنـا لأنهم إنما قدمـوا من منطقـة تشكـل بؤرة حقيقية يختلط فيها الكثير من الشعوب .

وفي هذا المجـال لا بـد لنـا من أن نطلب السـماح من زمـلائنـا النـروجيين ، لأنـه حتى الأسـاطير الأقل قابلية للثقة من أساطيرهم لا تذهب الى التأكد بأنهم اجتازوا مضيق فلوريدا ، وهذا مؤسف من بعض النـواحي ، لأن هؤلاء المغـامرين البواسل لو اجتازوا المضيق فانهم كانوا سيصلون إلى بحـر كان بالنسبة لأمـريكا ما كان البحر المتوسط بالنسبة لاوروبا . ففي خليج المكسيك كانت كل أنواع المؤثرات تتلاقى ، وكل الحـركـات الثقـافيـة التي تشـع من يوكاتان وأمريكا الوسطى والمكسيك وحتى من جزر الهنـد الغـربيـة المشعـة ومن السـواحـل البعيدة لأمريكا الجنوبية كانت تجد ملجأ لها هناك . فعن طريق هذه المياه وهذه الشطوط دخلت الحضارات على التوالي إلى داخل الولايات المتحدة الأمريكية .

وليس في استطـاعتنـا أن نحـدد في أيـة لحظـة حدث أول غزو مكسيكي . على أن ثمة نقطة مؤكدة هي أنه في نحو من العام ١٠٠٠ للميلاد كانت معظم الغـزوات التي خرجت من المكسيك قد فقـدت الكثير من زخمها .

هذا الإعصـار الجنسي الـذي لاحظنـاه في حوض الميسيسيبي

الأدنى لم يكن سببه الاضطرابات الناجمة عن الغزاة المكسيكيين . كلا ، فلقد كان لهذا الاختلاط سبب مختلف تمام الاختلاف ناجم عن الجهود التي بذلها برابرة حديثو المدنية لكي يساهموا في الإرث الجديد ويوافقوا طريقة حياتهم مع مكاسب المدنية التي جلبتها المكسيك إلى مناطقهم .

ففي المنطقة الضيقة نسبيا والممتدة حول الميسيسيبي الأدنى كانت القبائل والحضارات والألسنة تتصارع فيما بينها . فإلى جانب السيو نجد هنا الأداي والكادوهاداشوا الأقرباء القريبين إلى الباوني ، والكريك والشوكتاو والناتشي وقبائل أخرى كثيرة كانت تجمعها روابط قربى وثيقة بشعب كواهسويلا على الشاطىء الآخر من ريوغراند في المكسيك . ومع ذلك فثمة أمر يفوق في أهميته كل الاعتبارات الأخرى ، ذلك انه مهما اختلفت هذه الشعوب في اللغة أو الهيئة الجثمانية فان الاختلافات الثقافية فيما بينها كانت ضعيفة . وحضارتها بوجه عام مهما كانت أكثر تعقيداً من حضارة السيو فإنها كانت قد وصلت إلى نقطة ميتة . وعندما دخل الاسبانيون في القرن السادس عشر في احتكاك معها لأول مرة وجدوا عندها كثيراً من العناصر التي لم يصادفوها في مكان آخر وخاصة لدى السيو الشرقيين على كل حال ، كالمعابد الحقيقية والتماثيل ونظام للطبقات محدد تمام التحديد .

ومهما يكن من أمر فإننا هنا أمام ثقافة أكثر تطوراً من ثقافة السيو. ونحن لا نجهل أن هذه الشعوب كانت تعيش بين خرائب وأنقاض حضارة كانت أعلى منها أيضاً . وليس علينا إلا أن نصعد في الميسيسيبي نحو الشمال ثم نبتعد عنه نحو الشرق حتى نجد بقايا هذه الشعوب التي عفا عليها الزمان . وفي القرن السادس عشر عندما قام دي سوتو باكتشاف الميسيسيبي وجد أحد المسافرين معه شروط الحياة نفسها التي كان يعيشها السكان هنالك في حوالي عام ١٠٠٠ للميلاد . فقد رأى

عدداً كبيراً من التلال الاصطناعية أو الماوند « MOUNDS» وأماكن مسورة ENCLOS كان بعضها مستديراً وبعضها متدرجاً وبعض أسوارها كان على هيئة الحيوانات. وقد يحدث أحياناً عندما نتعامل مع التنقيبات أن نجد حتى اليوم رؤوساً بشرية تم نحتها بمهارة كما تكشف عن آثار لاستعمال النحاس استعمالاً متمادياً وبعض المحاولات للصناعات الذهبية. وذلك كله يتجاوز امكانات الشعوب التي كانت تعيش هناك منذ ألف عام في المناطق التي تجاور مباشرة هذه «الماوند» أو التلال الاصطناعية.

فمن الذي شاد هذه التلال؟. إنهم هنود ولا شك، وربما كانوا جدود السيو والكريك. وعلى كل حال فإنهم كانوا يتمتعون بحضارة أعلى بما لا يقاس من حضارة القبائل التي خلفتهم. وليس بإمكاننا أن نحدد اليوم أي نوع من الحكومات كانت حكومة بناة هذه التلال وأية ديانة كانت ديانتهم. إلا أن بعض التنقيبات الحديثة أظهرت أن بعض هذه التلال قد استعمل لغايات دينية لإقامة الاحتفالات عليها، تلك الاحتفالات التي لم يكن لها في تعقيدها شبيه لدى السيو أو الكريك حتى في أعظم أيام مجدهم.

ولقد عرفت حضارة بناة «الماوند» انتشاراً جغرافياً واسعاً. وآثارها تمتد اليوم من الأطلسي حتى الميسيسيبي ومن فلوريدا حتى وسكونسن الوسطى وحتى ميشيغان، كما امتد نفوذها أبعد من ذلك إلى الغرب، ذلك لأنه تم كشف آثار لها في الجنوب من كانسانس بين قبائل من أمثال الباوني، وحتى خلف الجبال الصخرية وحتى في نيومكسيكو. والواقع أن كل الثقافات الوطنية إلى الشرق من الميسيسيبي انما تمثل في أجلى إشراقاتها ما تمكنت من الاحتفاظ به من هذه الحضارة.

أما إلى الغرب من الميسيسيبي، وبخاصة على المجرى الأدنى

من النهر، فإن الوضع يختلف بعض الاختلاف، فهنا كان يعيش الباوني كما رأينا. ومهما كان التأثير الذي مارسه بناة الماوند على هؤلاء الهنود فإنه لا يمكن أن يقارن بالتأثيرات التي تلقوها من مناطق أخرى والتي كان أحدثها ما وصل إليهم من الشعوب التي كانت تسكن وادي ريوغراند في نيومكسيكو. ومن سوء الحظ أن حضارة الباوني هي اليوم خاصة جداً لدرجة أننا لا نستطيع أن نستخلص منها أي استنتاج مؤكد عما كانت عليه قبل ألف عام من الزمان. ومع ذلك فنحن نعرف أنهم كانوا يملكون نظاماً مبنياً على العائلات الكبيرة CLANS وأن قبائلهم كانت تنقسم إلى زمرتين. ونحن نجد هذين التقسيمين لدى السيو وهنود البويبلو في الريوغراند، وكل ما عدا ذلك هو رجم في الغيب. على أن شيئاً واحداً نستطيع تأكيده هو أن الذرة كانت يومذاك كما هي اليوم المركز الذي تدور حوله حياتهم وأنهم كانوا يملكون ديانة طقسية معقدة غارقة في رمزية رائعة لها علاقة بكائنات إلهية نجمية أو بأشياء مقدسة كانوا يسمونها باكي PAQUETS .

وبحسب ما لدينا اليوم من ثقافة البويبلو في ريوغراند الأعلى نعلم علم اليقين أن الباوني أعاروهم عناصر عديدة من ديانتهم وطقسهم ومن تلك الرمزية التي تلعب في حياتهم أكبر دور. على أن ثمة عناصر أخرى هي من إبداعهم وحدهم، وعناصر ثانية أتتهم من التولتيك TOLTÈQUES البعيدين. وقد تمكن الباوني والقبائل التي تمت اليهم بصلة القرابة من اذابة كل هذه المقتبسات في ثقافة جديدة في جوهرها ما لبثت أن مدت تأثيرها بدورها بعيداً على القبائل التي احتكت بها وبخاصة قبائل السيو.

وبعد عدة قرون هاجر أقرباء للباوني وأقرباء للسيو نحو الشمال إلى السهول الكبرى التي تمتد بين الميسيسيبي والميسوري حيث التقوا

هناك بقبائل بدائية هي قبائل الألغونكان التي قدمت من كندا واندفعت نحو الجنوب. وهذه القبائل المهاجرة هم الأقدام السود كما يسمونهم، ويتألفون من الأرابا هوومن الشيين، وساهمت كل هذه القبائل مجتمعة في بناء نظام جديد مركب هو ما يسمونه حضارة البراري.

وهكذا فإن الباوني والمجموعات التي تمت لهم بصلة القربى وضمنونا بطريق غير مباشرة على احتكاك مع نموذج من الحضارة أكثر إثارة للاهتمام وأكثر تعقيداً مما كنا قد عرفناه إلى الشمال من الريوغراند ممثلاً في البويبلو من سكان نيومكسيكو وأريزونا. فهنا كل المظاهر الثقافية من زراعة وتنظيم اجتماعي ودين وفنون أو آداب شفوية بلغت درجة عالية من التطور. على أن حضارة البويبلو هذه لم تمارس في بعض النواحي على بقية أنحاء الولايات المتحدة تأثيراً من الدرجة التي نتوقعها منها. فأثرها على الباوني كان عميقاً بدون شك. أما القبائل التي كانت تحيط بهم إحاطة مباشرة والتي عقدت صلات معهم كالأباش والنافاهو فلا بد أنهم كانوا يدينون لها بكل ثقافتهم، وذلك يسري أيضاً على شعوب كاليفورنيا الجنوبية، ولكننا كنا ننتظر المزيد من ثقافة كهذه الثقافة العظيمة. ويفسر تأثير البويبلو الضعيف نسبياً بما يلي: لقد كان شعب البويبلو شعباً مسالماً أساساً متقوقعاً حول نفسه دون أي روح تبشيرية يحملها تجاه الآخرين ولا يشارك إلا نادراً في حملات حربية وتكاد تكون أعماله العسكرية جميعها على سبيل الدفاع. ويبدو أنهم كانوا مشغولين أثناء أوقات فراغهم باتقان فنونهم وخلق طقوس غنية دقيقة وصارمة تذكرنا بما كان عليه شأن القدماء من سكان مصر.

هذه الحضارة الموحدة الكاملة التي أقامها شعب البويبلو نعرف الآن أنها كانت حصيلة تاريخ ملتو طويل. فالالتحامات التاريخية للقبائل التي ساهمت في تطورها ووجود بعض العادات تدلنا على أننا

أمام خاتمة لسلسلة طويلة من التراكمات. واليوم يتكلم البويبلو اربع لغات مميزة على الأقل ترتبط كل منها بلغة غريبة عن هذه المنطقة. فالنتيجة واضحة وتفرض نفسها إذن، فنحن أمام عملية امتصاص تدريجي وتبن قامت بها شعوب مختلفة لحضارة أقدم منها. فما هي هذه الحضارة وأين نستطيع أن نكشف عن آثارها؟

من حسن حظنا أنه ليس علينا أن نبحث في مكان شديد البعد. ففي هذه المنطقة نفسها كشفت لنا التنقيبات التي تمت في الأنقاض القديمة عن طبقات أركيولوجية منضد بعضها فوق بعض وبخاصة في أشكال الفخار. فإذا رتبنا هذه الفخاريات في نظام زمني ظهرت أمامنا ملاحظة مثيرة للفضول هي أن الفخار الذي يوجد في أسفل هذه الطبقات، أي الفخار الأقدم، منطبق على ما كشفه الاسبانيون في القرن السادس عشر فيما كان يسمى يومذاك أنقاضاً. وهذه الأنقاض لم تكن تتوضع دائماً فوق التلال وإنما في أغلب الأحيان فوق جروف FALAISES صعبة البلوغ وفي مغارات. وكانت تمتد على منطقة واسعة جداً من أتاوه وكولورادو متجاوزة حدود المكسيك إلى ولايات كواهويلا وشيهواهوا وجاليسكو وربما أبعد من ذلك إلى الجنوب أيضاً.

وثمة ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن سكان الجروف هؤلاء ـ كما يسمونهم بوجه عام ـ هم أسلاف وأجداد البويبلو الحاليين. وكل من زاروا حديقة ميزافيرد الشهيرة في كولورادو الجنوبية قدروا جمال هذه المدن المبنية فوق الجروف. فأطلال ميزافيرد على سبيل المثال تتوضع في مغارة طولها مائة وثمانية وعشرون متراً وعرضها أربعة وعشرون متراً وارتفاعها الأقصى أربعة وعشرون متراً أيضاً. وهناك نجد، بين أشياء أخرى، بقايا بناء هو بيت ضخم جماعي لا بد أنه كان يضم ما يقارب مائة وسبعين غرفة دون أن نحسب حساباً للطوابق العليا. وكان الناس

الـذين يعيشـون في هذه البيـوت يمارسـون زراعـة كثيفـة كان الـري الصناعي فيها يلعب دوراً من الدرجة الأولى. وقد حسب الدارسون أن الخزانات الموجودة بالقرب من الخرائب المسماة لوس مويرتوس في أريزونا كانت تتسع لكمية من المياه تكفي لري ما لا يقل عن ستين ألف هكتار من الأرض. وكـان يزرع هنـا، بين أشيـاء أخرى، القطن الـذي كان يستعمـل استعمالاً واسع النطاق. كما وجد فخار جميل متنوع الأشكال حيث كان بعضـه مزينـاً بزخارف متعددة الألوان مشغولة بإتقان شديد. ووجد كثير من الوجوه البشرية والحيوانية ولآلىء من الفيروز وفسيفساء من الفيروز أيضـاً. والخـلاصـة أن كل شيء يشير إلى ازدهار حضارة عظيمة في الماضي أصبح البويبلو الحاليون ورثتها وأحفادها.

ولـكـن أليـس من حقـنـا أن نتسـاءل: من أيـن قدمـت هذه الحضـارة؟. هل هي أصيلة في تلك المنطقـة الشـاعـريـة التي تشكو مع ذلـك من شيء من قلة الخصب أم أن علينـا أن نفتش عن أصـولهـا في أمكنـة أخـرى؟.. من حسـن حظنـا أننا نمتلك في هذا الموضوع بعض القـرائن. فقـد وجـد في بعض الخرائب أجراس من النحاس وتزيينات أخـرى صنعت من هذا المعدن نفسه، إضافة إلى أوعية VaSES مكفتة من نمـوذج خاص جداً. وليس ثمـة لدينـا شك في المكان الذي قدمت هذه الأدوات منه، ذلك لأنه لا يوجد في أمريكا إلا منطقة واحدة يمكن أن تصنـع فيهـا وهي المكسيـك الجنـوبيـة ويوكاتان. وثمة قرائن أخرى تؤكد هذه الفرضية تتمثل في بعض تفاصيل فن البناء، إضافة إلى أمر واقـع آخـر هو معـرفـة هؤلاء القوم لزراعة الذرة مع العلم بأنه ليس من شك في أن الذرة إنما دُجنت وزرعت في بدء أمرها في جنوبي المكسيك أو في أمريكا الوسطى.

والواقع أن السؤال الوحيد الذي يمكن أن يطرح هو في أي عصر

وبأية صورة وصلت هذه المؤثرات المكسيكية إلى شعوب البويبلو، وهي مسألة لا ينبغي لنا على كل حال أن نناقشها هنا. فما يهم أن نشير إليه هو أن الحضارة العالية التي بلغها هذا الشعب الوطني الذي كان يسكن إلى الشمال من نهر ريوغراند إنما قامت على قاعدة عريضة وغنية هيأها لها شعب كان يسكن بعيداً منها إلى الجنوب.

ولكن فلنقف هنا لنراجع باختصار بعض النقاط الرئيسية قبل أن نمضي في رحلتنا نحو الجنوب.

مهما كانت عظيمة تلك المنجزات الحضارية الوطنية التي ظهرت في الولايات المتحدة الأمريكية فإن هذه القبائل لم تأت بأية مساهمة أساسية بالمعنى الصحيح. فمن الإرث الغني الذي وصل إليها على درجات وفي أوقات مختلفة قامت هي بالاختيار، فبدلت ونقت وأدخلت تخصصات جديدة واخترعت أحياناً تفاصيل جديدة ولكنها لم تضف مع ذلك أشياء جوهرية، بل على العكس من ذلك نلاحظ انحطاطاً جرى في كل مكان. ويشير تاريخ الشعوب التي عاشت إلى الشمال من الريوغراند، يشير بوجه خاص إلى نسيانها المتمادي لوطنها الكبير الذي يقع بعيداً منها نحو الجنوب. وكان البرابرة الشماليون يضغطون عليهم من كل جانب، وفي وادي الريوغراند الأعلى لم يتمكن البويبلو إلا بكل صعوبة من الصمود طويلاً أمامهم وأمكنهم أن يضفوا عليهم شيئاً من حضارتهم قبل أن يهزموا أمامهم الانهزام الأخير.

وعندما اكتشف الإسبانيون العالم الجديد وأريزونا وجدوا المقاطعات التي يسكنها البويبلو وقد ارتدت إلى بقعة صغيرة محصورة. وكان الأوت والكومانش والآباش، وهم رجال حرب أشداء ولكنهم محرومون تماماً من كل مظاهر الحضارة، يرتادون هذه الجروف المهجورة والمدن المحصنة التي تقع فوق هذه الهضاب.

وكانت اصول هؤلاء البرابرة تقع في الغرب والشمال، في كاليفورنيا الوسطى والشمالية وأريغون وواشنطن وسهول كندا وهضابها الغربية. ومما يثير الفضول أن هذه المناطق كلها لم تكن تضم أية اشارة إلى وجود حضارة عالية فيها، ومع ذلك نجد في أقصى الشمال الغربي، في واشنطن الشمالية وكولومبيا البريطانية، انتشار حضارة عجيبة ليست زراعية وانما هي من نموذج خاص. ففيها يتمثل نظام متطور للطبقات يرتبط بمقدار ما تمتلكه كل طبقة من ثروات مادية، وقد خلق مؤسسة اجتماعية دينية أظهرت مهارة مدهشة في نحت الخشب وشغل الأردواز. ثم انتشر تأثير هذه الشعوب في كل الاتجاهات نحو الشمال والغرب والجنوب حتى بلغ كاليفورنيا الشمالية. على أن كل ذلك كان في العصر الذي نتكلم عنه جزءاً من مستقبل بعيد.

ولكن لنعُدْ إلى أجداد البويبلو. إن الذرة والقطن وفن البناء الذي عرفه سكان الجروف وأحفادهم، وفسيفساء الفيروز، وأجراس النحاس، كل هذه العناصر كانت ذات أصول مكسيكية. اما عن أي طريق نفذت إلى الولايات المتحدة فهذا سؤال له أهمية ثانوية. إن كل الطرق تؤدي إلى وادي مكسيكو، ولكننا عندما نبلغ هذا الوادي ندرك أننا أصبحنا في تيه كبير، وليس الأمر أننا لا نزال بعيدين عن أن نصل إلى نهاية أبحاثنا ولكن الأمر هو أننا لا نزال منها في بداية الطريق.

إن الأزتك وأقاربهم من القبائل التي كانت تسكن وادي مكسيكو والأراضي المجاورة له في عام ١٥١٩م في اللحظة التي تم فيها الفتح لم يكونوا إلا قادمين جدداً على المكان، غزاة أتوا من الشمال. وإذا ما نحن تقدمنا من الجنوب إلى الشمال مثلاً فإننا سنرى حضارة تنطفيء شيئاً فشيئاً بمرورنا بقبائل نصف بربرية في غواد الاجارا من ولاية جاليسكو، ثم برابرة حقيقيين كالأوت UTE والشوشوني في أوتاه ونيفادا.

وفي العام ١٠٠٠ للميلاد لم تكن مدينة مكسيكو قد وجدت بعد. وفي هذا الزمن كان الأزتك ـ وهم شعب صغير نشيط نصف متحضر ـ يسكنون إلى الشمال من وادي مكسيكو ويكافحون بيأس قبائل من أقربائهم كانت أكثر حضارة منهم لكي يحافظوا على الأرض التي احتلوها منذ قليل. وإلى جانب أن أعداءهم كانوا متحضرين فانه لم يكن في استطاعتهم أن يفاخروا بثقافة قديمة لأنهم لم يسبقوا الأزتك في البلاد إلا منذ حوالي ثلاثة قرون على الأكثر. ومع ذلك فقد كانوا يعرفون ـ وهذ مسألة هامة جداً لنا ـ قصصاً نصف اسطورية يحكمونها عن الشعوب التي كان أجدادهم قد وجدوها عند وصولهم إلى هذا الوادي التاريخي وعما كان لديها من عادات.

ولنفترض أن أقارب الأزتك هؤلاء إنما دخلوا إلى الوادي من الشرق. فقد وجدوا عند دخولهم وعلى بعد حوالي خمسة وعشرين كيلومتراً من مدينة مكسيكوا الحالية، وفي مكان يسميه الأزتك تيوتيهوا كان، وجدوا في هذا المكان ثلاثة أهرامات شامخة ترتفع من أعماق الوادي ومنطقة غنية بالمدن الصغيرة تتمثل فيها كل مظاهر الوفرة والرخاء. وكان أول ما فعله هؤلاء الغزاة هو قيامهم بالتخريب. ولكن مهما كانت بالغة خسائر هذا التخريب فإنه لم يكن غير قابل للإصلاح. وحدث ما يحدث في أغلب الأحيان، فهؤلاء المهاجرون القادمون من الشمال ما لبثوا أن استقروا في هذه المنطقة وتبنوا حضارة الشعب الذي انتصروا عليه. وليس من المحتمل أن يكونوا قد عدلوا إلا قليلاً ما أخذوه عن أسلافهم، بل إنهم بالتأكيد لم يضيفوا إليه على ما يبدو إلا القليل. وعندما وصل الأزتيك بدورهم تبنوا هم أيضاً تبنياً ثانياً حضارة أقربائهم من القبائل التي سبقتهم. فإذا ظهرت مكسيك الأزتك

لكوورتيز ورجاله رائعة عظيمة كاملة فإن بامكاننا أن نتصور كيف كانت حضارة الشعب الذي بنى بنفسه أهرامات تيوتيهواكان

ولقد أظهرت تنقيبات حديثة جرت في تيوتيهوا كان أن من الضلال أن نؤكد بأن هذه الحضارة كانت حضارة محلية. فإلى الجنوب، دائماً إلى الجنوب علينا أن نتوجه. وتقودنا تحرياتنا إلى الجنوب الشرقي حتى نجد في ولاية داكساكا شعبا يتكلم لغة مميزة عن لغة الأزتيك ويمثل حضارة مختلفة. وهنا في هذه المدن الصغيرة المبعثرة في تجويفات من الوديان المخصبة نجد مملكة مركزية قوية كان يوجد على رأسها دائما ملك وكبير كهنة، وكانت الطبقات فيها متمايزة تمايزاً شديداً لدرجة أن العامة كان لهم ألقابهم الخاصة التي يتوجهون بها بالكلام إلى النبلاء. وكل شيء هنا يشير إلى حضارة قديمة. ومع ذلك فإنه لا ينبغي علينا أن نسند لهذه الشعوب من الزابوتيك والميكستيك أصالة عريقة. على أن هؤلاء الشعوب ان لم يكونوا مبدعين فقد كانوا على الأقل وسطاء بين مؤسسي «الحضارة الكبرى» وبقية أمريكا الشمالية وكانوا يعيشون بالقرب من هؤلاء المؤسسين. وإذا تابعنا جرينا هذه المرة نحو الشمال الغربي فإن هذه الظواهر تزداد وتتضاعف، ولا نلبث أن نجد صنماً بدائي النحت مزيناً بكتابة هيروغليفية قديمة. وأخيراً في ولاية شياپا بالقرب من الحدود التي تفصل حالياً المكسيك عن غواتيمالا يظهر أمامنا الهدف الذي طالما سعينا إليه: خرائب معبد بالينك.

في بالينك، في وسط التلال المكسوة بالغابات الكثيفة، كانت ترتفع فيما مضى من الزمان بين الخضرة المدارية مدينة راسخة رائعة واحدة من التحف الأكثر كمالاً في حضارة المايا، وقد هُجرت هذه المدينة في حوالي عام ٧٠٠ للميلاد عندما هاجر بُناتها إلى الشمال إلى يوكاتان.

ونحن نجهل الأسباب التي حدت بهم إلى هذه الهجرة واخلاء المدينة وان كنا نعرف أن كثيراً من مدن المايا الأخرى هُجرت هي أيضاً بحيث بقيت أسباب هذه الهجرات سراً مغلقاً شأنها في ذلك شأن أصول هذه المدن الغامضة.

وإلى الشمال الغربي لا نجد ما يمكن أن يقارن بحضارة المايا هذه. أما في الجنوب الشرقي فإننا ـ على العكس من ذلك ـ نشهد سلسلة من الثقافات تمتد حتى برزخ بناما. وفي هذه الغابة المدارية حيث تتناوب الغابات مع الأدغال الكثيفة تبدو لنا واضحة العناصر الثقافية الرئيسية التي استمد منها وطنيو أمريكا الشمالية أصول ثقافتهم. وقبل كل شيء كانت الذرة قد قدمت من هذا المكان، وبدونها لم يكن بالإمكان قيام زراعة ولا استقرار ولا تنظيم ولا تركيز في السكان ولا قصور حجرية ولا حكومة ولا ديانة معقدة ولا كمال فني. وعلى الرغم من أن الأهمية الأولى للذرة قد امحت بمقدار ما أصبحت حضارة المايا أكثر تعقيداً فإن هذا النبات ما لبث أن استعاد مزاياه عندما امتد نفوذ المايا إلى الشمال. ففيما وراء ريوغراند أو خليج المكسيك كان يشكل المركز لكل حياة اجتماعية واقتصادية ودينية، وحيثما توقفت زراعة الذرة كانت الحضارة تتوقف معها أيضاً.

وعندما نصل إلى برزخ بناما نجد أنفسنا أمام انقطاع في هذا الاستمرار. فإذا قسنا الأمور بما وجدنا في أمريكا الشمالية كان من المنتظر أن نجد هنا حضارة تتنامى بالتدريج كلما توجهنا إلى الجنوب من هذا البرزخ وكلما توغلنا داخل أمريكا الجنوبية. والواقع أن مستوى الحضارة في كولومبيا والاكواتور وبيرو وبوليفيا بلغ ما بلغه عند المايا، ولكن فروقاً عميقة كانت تميز بين الحضارتين. وكما كانت كل الطرق في أمريكا الشمالية تبدو وكأنها تقود إلى وادي مكسيكو كذلك كان الأمر في أمريكا

الجنوبية إذ كانت كل الطرق تبدو وكأنها تقود إلى إنكا INKA البيرو، أو بعبارة أخرى نحو الحضارات التي اكتسبتها الإنكا. وكما حدث بالنسبة للأزتيك وأسلافهم المباشرين فإن الإنكا الفاتحين في البيرو ما لبثوا أن امتصهم ضحاياهم الذين أحرزوا عليهم الانتصار.

ومع ذلك فإن من السخرية أن نوازن بين الحضارات التي كانت تمتد من بناما حتى بيرو، فحيثما اتجهنا في هذه الأماكن كانت الحضارة مرتفعة، ولكن هذه الحضارات كانت تختلف من جميع الوجوه وبشكل واضح عن حضارة المايا. ويمكننا أن نقول إنها في احدى النواحي فقط كانت أدنى من حضارة المايا لأنها لم تكن تملك نظاماً للكتابة يمكن أن يقارن بكتابتهم الهير وغليفية. وإذا كان بامكانها أن تقارن بحضارة المايا في ميدان البناء والفخار فإنها تفوقها بمراحل في أعمال الذهب والفضة والنحاس. وكما كان الأمر في أمريكا الشمالية فإن الذرة زرعت هنا أيضاً على نطاق واسع ولكن كان عليها أن تتقاسم سيادتها مع البطاطا التي يعود أصلها إلى البيرو. وقد مارست هذه النبتة هنا نفوذاً على حياة هذه الشعوب وخيالها أقوى بكثير مما فعلته الذرة فيها.

وقد يكون من الصعب علينا أن نصدق أنه لم تكن توجد أية صلة بين أمريكا الوسطى وهذه الحضارة الأمريكية الجنوبية. والواقع أن السنوات الأخيرة قدمت لنا الكثير من البراهين على وجود تبادل مستمر بين الألهة الزراعية لكلتا الحضارتين، ولكن يبدو أن هذه العلاقات كانت علاقات الند للند، وبصورة عامة فإن أمريكا الجنوبية أعطت لحضارات أمريكا الوسطى أكثر مما أخذت منها.

وقد لعبت حضارات أمريكا الجنوبية الكبرى في بقية هذه القارة الدور نفسه الذي لعبته حضارة المايا في أمريكا الشمالية. فقد مدّ الإنكا ومن سبقهم نفوذهم نحو الجنوب حتى شيلي. وبعد أن اجتازوا جبال

الأنديز واخترقوا ما يسمى الآن بالأرجنتين أسسوا هناك حضارة هامة هي حضارة الكالشاكي . ولكن هضبة غرانشاكو غير المضيافة ما لبثت أن اوقفت تقدمهم في هذا الاتجاه . أما في الشمال فإن الكولومبيين القدماء والإكواتوريين أثروا تأثيراً بالغاً في قبائل فنزويلا وامتد هذا النفوذ بلا مراء حتى الأمارون ، ولكن الغابة العذراء وقفت دون امتداده إلى ما وراء ذلك .

وإذا استثنينا شريطاً ساحلياً ضيقاً يمتد على طول المحيط الهادي فإننا لا نجد في أمريكا الجنوبية حضارات متميزة أو معقدة . والمنطقة التي كان يشغلها الهمجيون كانت عظيمة الاتساع بل أكثر اتساعاً مما كان عليه الأمر في أمريكا الشمالية . على أننا لا يجب أن نستخف بهؤلاء الهمجيين لأنهم يتمتعون بطقوس وعادات هامة بعضها غني الدلالة ويبدو أنه قادم من موطن بعيد يقع ما وراء المحيط الهادي في جزر بحار الجنوب .

لقد انطفأت في الغابة البرازيلية آخر ومضات هذه الحضارة كما انطفأت على هضبة أوتاه ونيفادا الكبرى . على أن وطنيي الولايات المتحدة كانوا أكثر حظاً من وطنيي البرازيل والأرجنتين . فما زالت تسمع أصداء ضعيفة من الحضارة الأم في الشمال حتى لدى المودوك البداة في الأوريغون . ومع ذلك فإن ثقافة المايا بانتقالها من يد إلى يد تحولت حتى غدت حائلة المعالم ، ولا نكاد نميز بعضاً من تفاصيلها الثانوية إلا لدى بعض من القبائل الأكثر بعداً وجفاء .

والوطنيون في الولايات المتحدة الأمريكية لا يزالون يتمتعون بميزة أخرى هي أن بعضاً من القبائل التي كانت تعيش في وقت ما بالقرب من منبع حضاري ما لبثت ان هاجرت في النهاية نحو مناطق جديدة بعيدة ، فنجم عن ذلك أن شعباً كان أجداده في آن واحد جيراناً

وورثـة لبنـاة «المـاوند» أي ورثة بعيدين لتقاليد المايا ، وجدوا أنفسهم في النهـايـة محاطين بقبائل بدائية غريبة عليهم في ويسكونس الشمالية على شواطىء غرين باي GREEN BAY .

الفصل الثاني

المايا، منبع الضياء

في عام ١٥٢٤م، أي قبل خمس سنوات من الاستيلاء على مدينة مكسيكو أوتينوشتيتلان كان الفاتح الكبير فرنان كورتيز يتقدم موغلاً نحو الجنوب حتى اجتاز ماهو الآن جمهورية هندوراس الصغيرة. وكانت يومذاك أصعب اختراقاً مما هي عليه اليوم.

كان ثمة غابة كثيفة عذراء تسد عليه الطريق. وكانت الخضرة غزيرة رائعة الجمال، والهواء معطر بروائح كثيرة التنوع بدءاً من أريج الزهور الناعم حتى عفن المواد الفاسدة التي تتحلل. وكان الجو حاراً ورطباً والملاريا تهدد الجميع، وعناكب ضخمة جعلت من المستحيل أية إقامة تمتد فترة طويلة، وأخيراً أرجال من الحشرات التائهة السامة التي تجعل من المستحيل التمتع بنوم ليلي.

عبر هذه الغابة الملتفة الكثيفة كان كوريتز وجنوده يتقدمون بكل بطء فاتحين أمام أرجلهم بالفأس ممراً لأقدامهم. وإذا استثنينا مصاعب الطريق فإنهم لم يتعرضوا لأي حادث مهم. وفي نقطة ما من نقاط

الـرحلة مر كورتيـز على بعـد ثلاثة فراسخ من نهر صغير دون ان يتوقف في هذا المكان لأنه لم يثر فيه أي اهتمام. ومع ذلك فلو أنه اتجه نحو مجرى هذا المـاء فلابـد أنـه كان سيجـد على ضفافه خرائب مفككة لما كان في المـاضي مدينـة رائعـة لا يضـاهيهـا شيء مما كان قد رآه أثنـاء مسـيرته التـاريخيـة من فيراكروز إلى مكسيكو ـ تينوشتيتلان. ففيما مضى كانت تنتصب هنا كوبان COPAN احدى مفاخر حضارة المايا.

فيما مضى، فوق سهل كبير طوله اثنا عشر كيلومتراً وعرضه ثلاثة كيلو مترات، كان منظر أخاذ يطالع من ينظر إليه. الشـوارع والسـاحات والعـرصـات كانت مبلطـة بالحجـر والاسمنت الأبيض المصنوع من الكلس ومسحـوق الحجـارة. وكـان نظـام واسع للري في خدمة المدينة مؤلف من أقنيـة مغطـاة ومسارب تحت الأرض من الحجر والاسمنت. وعلى الشـاطىء الأيمن من النهر في قلب المـدينـة نفسهـا كانت ترتفع المجموعة الرئيسية من الأبنية من معابد وقصور ومنشآت عامة.

في هذا التيـه من الآثار يقع نظرنا على أول بناء عام في أمريكا. تبلغ مسـاحتـه سبعـين متراً مربعـاً، وقـد بني على أسـاس أن تقـابل واجهاته الجهات الأساسية الأربع. وفي داخل البناء الذي يبلغ ارتفاعه ثمانية عشر متراً توجد ساحة مساحتها أحد عشر متراً مربعاً، ولا بد أن المجموع كان يشكل منظراً مذهلاً.

ويحيـط بالسـاحـة نفسهـا صفـوف من المقاعد ترتفع على شكل أمفيتياتر حتى علو ستـة وثلاثين متراً مبنية من كتل كبيرة من الحجارة المشطوفة بكل دقة والملصقة ببعضها دون مساعدة من ملاط. وفي وسط الـوجـه الغربي من البناء سلم وإلى الشمال منه معبدان جميلان جدران أحـدهما الـداخليـة مغطـاة بكسـاء دقيق من الجص فوقه وجوه ومشاهد رسمت بألـوان عديـدة، أمـا الأفـاريـز فهي مزينة بالجص وزينـات

استعملت فيها الألوان الصارخة نفسها. وتغطي الجدران الخارجية من المعبد وجوه خرافية بينما يلف جدرانه الأربعة إفريز معقد مزخرف بزخارف على شكل ريش الطيور نحتت أجمل نحت، وإلى الأعلى صفوف من صور نصفية يبدو أنها لوحات كانت تحيط بالبناء.

ويشكل الجناح الشمالي من البناء المركزي هرماً كبيراً يرتفع في جهته الجنوبية أمام الميدان سلم جميل مغطى بالكتابة الهيروغليفية يقود من الميدان إلى داخل المعبد بعلو تسعين متراً، وهو مزين على مسافات منتظمة بوجوه أناس جالسين.

تلك هي كوبان. وكوبان هذه ليست إلا مثالاً بين العديد غيرها من المدن وهي تمثل قمة ازدهار حضارة المايا بشكل نموذجي. بينما بنيت بقية المدن بشكل عام وفق المخطط نفسه. فعلى أكروبول صنعي مشكل من تكديس واسع للتراب كان يشكل القواعد المنفصلة لعدد من المعابد كانوا يقيمون ساحات لها اتساعات متنوعة. والأبنية بوجه عام على نوعين: المعبد والقصر. أما المعبد فكان من الخارج متعامد الزوايا ويرتفع فوق هرم عال يتشكل من عدد من المصاطب المتطبقة ويتم الوصول إليه عن طريق سلم عريض. ويتكون الهرم نفسه في العادة من كتلة متينة من الحجارة والتراب غطيت بطبقة من الإسمنت أو الحجر المشطوف. أما القصور - إذا جاز لنا أن نطلق عليها هذه التسمية - فتتألف من مجموعات من الغرف المبنية فوق مصاطب واطئة غير منتظمة في أغلب الأحيان، وربما كانت مخصصة سكناً للكهنة أو للنبلاء.

ونحن نعرف من فن البناء عند المايا ما يكفي لتكوين فكرة واضحة نسبياً عن ملامحه الأساسية. فقد كانوا يحصلون على الكلس باحراق الحجارة الكلسية ثم يصنعون منه ملاطاً يضعونه على طبقات من المادة المفتتة نفسها. وكانت الحجارة مشذبة من وجهها الخارجي بينما

يبقى وجهها الداخلي على حالته الطبيعية مع طلائه بالكلس. أما الفواصل فيما بينها فكانت تملأ بالكلس والملاط مع قطع صغيرة من الحجارة لسد الثغرات.

وكانت الغرف مقببة، ولكن القبة التي كانوا يحصلون عليها لم تكن قبة حقيقية بحسب مفهومنا لأن مفتاح بناء القبة كان مجهولاً من المايا، وكان لهذا الجهل نتائج عميقة على فنهم لأن الجدران وجب عليها أن تكون سميكة جداً لكي تتمكن من حمل ثقل السقف.

وكان يحدث غالباً أن يبنوا طبقة أخرى فوق البناء الأساسي حتى أن بعض أبنية المايا بلغت درجة عالية نسبياً من الارتفاع. مثال ذلك أن معبد تيكال TIKAL بلغ ارتفاعه ثلاثة وخمسين متراً بما في ذلك الهرم والطابق العلوي.

وإذا نظرنا إلى هذه المدن عن بعد فان بعضها يوحي لنا بمشهد يشبه مدينة نيويورك بشكل مصغر طبعاً حيث تنبثق بعض ناطحات السحاب الصغرى على أبعاد غير منتظمة عن كتلة الأبنية الأقل ارتفاعاً منها. ومن المؤكد أن لهذا التشبيه ما يسوغه ذلك لأننا إذا أخذنا بعين الاعتبار الاتجاه الشاقولي فإن كل بناء من أبنية المايا يتألف من ثلاثة أجزاء هي البنية التحتية أو القاعدة الهرمية، ثم البناء نفسه، وأخيراً الطابق العلوي منه. أما القصور الأكثر سعة فإنها كانت تتألف عادة من طابقين أو ثلاثة طوابق لا يرتكز بعضها على بعض وإنما ترتكز كلها على قاعدة متينة واحدة بحيث تكون الطبقات العليا راجعة عما دونها وبحيث يشكل مجموع البناء شكلاً هرمياً ذا شرفات. وعلى الرغم من ان الأبنية تضم ثلاثة طوابق بوجه عام فإننا نجد منها أحياناً ما يضم أربعة بل وخمسة طوابق. فهناك بناء من نوع التيكال (المعبد) يتألف من خمسة

طوابق فيها ثلاثة تراجعات متتابعة بحيث تصبح الطوابق الثلاثة العليا منه فوق بعضها بشكل مباشر.

ومع أن الكثير من معابد المايا الشهيرة خارقة وملفتة للنظر من وجهة النظر الفنية المحضة فإن فن البناء عندهم كان يستمد طابعه الخاص ليس من فن تطبق أجزاء البناء بعضها فوق بعض وانما من طبيعة التزيينات التي تكسوه، فكل نحت يكاد يكون تزيينياً ولا نجد إلا القليل من الأمثلة عن قطع لا علاقة لها بالبناء وانما هي نحت مستقل.

في كل مكان نجد أنفسنا أمام تزيينات منحوتة، في داخل الأبنية وعلى طول الواجهات كما على طول الهياكل والأنصاب الحجرية المرفوعة على واحدة من واجهاتها أو على عدد منها. وربما كانت الأكثر شهرة من هذه التزيينات هي تلك التي تعلو الواجهات، ذلك لأنها حفظت لنا بوجه عام في حالة جيدة. وافضلها تلك التي تعود إلى العصور الأقدم عندما كان الأسلوب لا يزال أكثر حرية وأكثر واقعية مما أصبح عليه فيما بعد. فواجهات هذه الأبنية كانت أقل تعقيداً من تلك التي تلتها، فهي مزينة دائماً بوجوه بشرية وأشكال ثعبانية.. الخ. صنعت من الجص أو نحتت على قطع حجرية ألصقت مع بعضها لتشكل نوعاً من الفسيفساء.

وكل هذه التزيينات المنحوتة كانت نافرة. وقد اكتسب المايا في هذا الفن نوعاً من الاتقان نادراً ما تخطاه أحد غيرهم أو ساواهم فيه. ففي الرسم الجانبي - PROFIL للأشخاص كان فنانو المايا معصومين من كل عيب، كما أن مهارتهم في نقش ثلاثة أرباع جسم الانسان كانت تسترعي الانتباه، ولا يمكن أن تقارن بهم لا قدماء المصريين ولا الاشوريين، فهنا نحن ننحني أمام تمكن مطلق من الفن قادر على رسم

ونحت الأعضاء في مختلف الأوضاع الممكنة، والمهارة التقنية التي توصلوا إليها نجد أعلى تعبير عنها في الكتابة الهير وغليفية المنقوشة في كوبان COPAN حيث الوجوه متاشبكة ومتغضنة بطريقة مدهشة التعقيد دون أن تضيع شيئاً من انسجامها وتناسبها.

وكان من نتيجة استعمال النحت في سبيل التزيين المطلق أن الوجه نفسه اختفى في معظم الأحيان اختفاء تاماً وراء وفرة كبيرة من التفاصيل، ومع مرور الأيام توضحت هذه النزعةعلى مقياس واسع. واخيراً وصل الأمر بالفن الذي كان في الأصل تعبيراً دقيقاً عن الأشكال الانسانية والحيوانية أن أصبح لا يمثل الجسم الانساني أو الحيواني إلا على أنه واحد من من التفاصيل في مجموع تزييني شديد التعقيد محفوف بالتلافيف والزخارف. وهكذا انتهى أمر فن النحت إلى أن يكون ملحقاً بالتزيينات مما أخر تطوره الذاتي تأخيراً واضحاً. ومع ذلك فثمة وجوه من بالينك PALENQUE تثبت لنا بوضوح أن نحاتي الحجر من المايا نجحوا في أن يكونوا الأسياد الذين لا ينازعون في مهنتهم وأنهم توصلوا إلى انتاج قطع رائعة من النقش النافر. وهكذا نرى ان التفرد والغرابة في أسلوب المايا هما اللذان أثرا في فن الوطنيين من سكان أمريكا الشمالية أكثر من تأثير صفات هذا الفن نفسها في فن هؤلاء الوطنيين. فنحن لن نجد في أية منطقة تأثرت تأثراً مباشراً بفن المايا قبة حقيقية، ولن نلاحظ في أي مكان أن النحت نجح نجاحاً حقيقياً في أن يحرر نفسه من تعقيدات البناء أو تعقيدات التزيين.

فإذا حكمنا على فن المايا من الظاهر، إذن، على الرغم من كل ما فيه من جدارة وميزة، فإنه يبدو لنا خاضعاً بالدرجة الأولى لغريزة التزيين. والموضوعات التي تدخل في تزيين الواجهات لا ينالها حصر. وعلى العكس من فن الكثير من الشعوب الوطنية في

الأمريكيتين فإن فكرة التناسق قلما كانت تؤخذ بعين الاعتبار. فنحن نجد بدلاً عنها اسراف في الوجوه البشرية والأسطورية ربما كان أكثرها إثارة للانتباه في تكراره البالغ ما يمكن أن نسميه فكرة الثعبان الرائش (أي الذي يعلو جسده الريش). وكما يدل هذا التعبير فإن هذا الحيوان لا ينبغي له أن يكون ثعباناً حقيقياً، فليس ما هو أبعد من ذلك عن أفكار هؤلاء الفنانين الأمريكيين الأوائل، فالثعبان الذي يمثلونه كان مزيجاً من عناصر خيالية، بل هو قبل كل شيء رمز لأكبر شخصية إلهية لدى المايا هي الإله كوكولكان KUKULKAN الذي اطلق عليه الأزتك اسم: كيتزالكواتل QUETZALCOATL، أي كيتزال ـ الثعبان، ذلك لأن كيتزال كان اسماً لواحد من أنواع الطيور. ومن أجل هذه الشخصية الإلهية الكبرى كرست مدينة شيشين إيتزا الشهيرة حيث يقوم معهد كارنيجي بتنقيباته في هذا المكان.

والمعنى الديني لهذه الذات الإلهية المتفردة المنفرة ضاع بالنسبة لنا ولا نعرف عنه شيئاً. فقد كان لها جسد ثعبان، وريش طائر الكيتزال، وأسنان الجاغوار (النمر الأمريكي)، وزينات بني الإنسان كغطاء الرأس وغطاء الأذنين أو الأنف، وكان منخراه ينفتحان فوق رأس آدمي.

ومن الصعب أن يكون بالإمكان إنتاج مثل هذه المجموعة من العناصر أكثر من مرة واحدة. فنحن إذن مخولون بأن نؤكد أنه في كل مكان نواجه فيه حيواناً من هذا النوع سواء في فن أية قبيلة هندية أو في أساطيرها فلا بد أن وجوده عندها إنما هو ناجم عن تأثير المايا في حضارتها. والواقع أننا نجد هذا الثعبان الرائش في كل أمريكا الوسطى والمكسيك وحتى فيما وراء نهر ريوغراند، ـ رغم أننا نجده وقد اتخذ شكلاً أكثر لطافة وتعديلاً كلما اتجهنا نحو الشمال. وانتشار هذه الهيئة في الفن والميثولوجيا والدين هو إذن واحدة من نقاط ارتكازنا الأكثر قيمة من

اجـل ان نحـدد إلى أي مدى أثـرت حضـارة المايا في بقية أنحاء أمريكا الشمالية الوطنية .

وتطور الثعبان الرائش على مر الزمن هومثال جيد على الأخطار التي تتعـرض لها غريـزة التـزيين المتروكة وشأنها بحيث تؤدي في النهاية إلى نمـــودج أسلوبي خاص بكـل مكـان . فالصـــورة التي نقـدمهـا في الصفحة التالية .

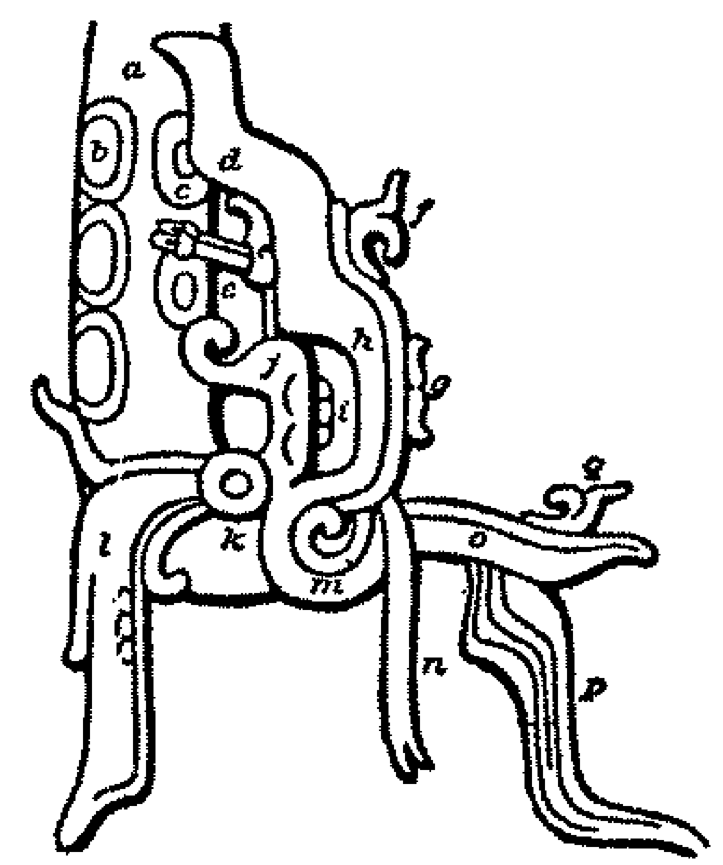
لا تبــدو في أعـــين غير المطـلعـــين على الأســرار إلا تشبيكـــاً ولفـاً وكـلاليب خالية من المعنى ، مع أنها ثعباننا الذي تغير شكله حتى اصبح غريبـاً علينا . وعلى الرغم من ان فكرة الثعبان انتقلت من المايا إلى بقيـة أمـريكـا الشمالية فإن النموذج الخاص منه الذي أوجده المايا لم ينتشر على الأسلوب الذي أوجدوه . فالأسلوب والرمز يلعبان دوراً كبيراً لدى الكثير من القبـائل التي تعيش إلى الشمال من ريوغراند ولكن لهما صفة مختلفة .

ففي كل مكان سنجد أثراً للثعبان الرائش ذي الأجنحة المنبسطة الذي يرمز في معنى ما إلى فتح القارة الثقافي على يد المايا . ولكن ماذا يعني هذا الثعبـان في نظـر الهنـود الـذين يسيطر سيطرة كاملة على فنهم وعلى حيـاتهم الـدينيـة؟ . . إن معلوماتنا ، مع الأسف ، في هذه النقطة الحيوية مبهمة مبتورة . ومع ذلك فإن ثمة أقاصيص تركها لنا المؤرخون الإسبـان والمبشـرون تحمـل في طيـاتهـا الكثـير من المعلومات الغامضة المتنـوعـة بمقدار غموض وتنوع العناصر التي تتركـب منها . فهو اله ، إله كبـير ترتبـط به كل مصـالـح بني الانسان . وهو يرتبط بالذرة والماء والمطر المخصب والهـواء والســماء والجهـات الأصليـة الأربـع والغـرب ونجمة الصباح . ومع ذلك فتحت مظهره النصف إنسـاني كان مؤسس ومنظم حضـارة ، وهذا أفضل ما يمكننا أن نعبر عنه . وبحسب ما ترويه بعض

الأساطير فانه هو الذي أسس شيشين إيتزا . ويروى أيضاً أنه ظهر بدون سابق إنذار ومن مكان لا يعرفه أحد ثم مضى على حين غرة إلى جهة غامضة لا يعرفها أحد. والنقطة الرئيسية في الأسطورة هي عودته التي أُعلن عن أنها ستحدث في زمن ما من مستقبل الأيام، وبناء على هذا الاعتقاد افترض الإسبانيون الذين فتحوا البلاد أن المايا وكذلك الأزتك الذين يسكنون وادي مكسيكو كانوا يتوقعون وصول البيض الوشيك .

ومما لا شك فيه أن الثعبان الرائش كان يرمز إلى الضياء والحياة والحركة . وربما كان يرمز أيضاً إلى الماء في مظاهره المختلفة التي اجتمعت فيه بطريقة أصولية . ويذهب اختصاصي بقضايا المايا ذو شهرة واسعة، معتمداً على الاسم الذي تحمله هذه الذات الإلهية لدى قبائل المايا وهو «الثعبان الرائش الذي يمضي في الماء»، يذهب هذا الباحث الاختصاصي إلى أن الكوكولكان (أي الثعبان) إنما يجسد تموج الماء تحت عمل الريح، ذلك التموج الذي تثيره في أذهاننا رياش الثعبان وحركاته على السواء. وبحسب ما يقوله هذا العالم فإن الثعبان الرائش ربما كان يمثل الحركة والريح الأصلية التي هي مبعثها في آن واحد، أي أنه يمثل النفَس والحياة. وتحت مظهر الثعبان والماء يرتبط ارتباطاً وثيقاً بإله المطر، بينما يسيطر تحت مظهر الطائر على الجهات الأربع وعلى السماء.

هذه الذات الإلهية الخارقة ذات الطبيعة غير المحددة تثير مشكلة مشوّقة . ففي المكسيك نفسها وبين الكثير من القبائل الأكثر تطوراً في شمالي المكسيك توزعت وظائف وخصائص هذا الإله التي وحدها المايا فيه بين عدد كبير من الآلهة . فهل ينبغي علينا أن نصدق أن هذا الإله الثعبان الكبير عندما انتشر نحو الشمال أضاع وحدته كما أضاعت وحدتها كل العناصر الثقافية الأخرى للمايا التي امتدت هي الأخرى إلى



الشمال مع امتداد عبادة هذا الثعبان، أم أن من الأصح أن هؤلاء المايا أنفسهم هم الذين أقاموا هذا الإله وركّبوه صنعياً بأن مزجوا كثيراً من الآلهة وجعلوها لهم إلهاً واحداً؟ . فالكثير مما يعزى إلى الثعبان الرائش يمكن أن يكون قد عُزي إليه في أوقات لاحقة ولكننا من حيث الجوهر نشعر بأن الحق معنا في أن نعتقد بأن هذه هي الفرضية الأولى التي يمكن أن تكون أكثر صواباً مما عداها.

اثنتان من عناصر هذه الذات الإلهية تكادان توجدان في كل أمريكا الشمالية : ربطه المبدئي بالماء، والرأس الانساني ذو الفكين المفتوحين. وفي رأيي أن هذا الرأس إنما هو التمثيل الرمزي للنزاع الذي يخوضه الثعبان الرائش دائماً ضد ذات إلهية أخرى. وقد أمدنا قدماء الأزتك بالتعبير التقليدي لهذا النزاع. ففي رأيهم أن الثعبان الرائش الذي يحمل اسم كيتز الكواتل يقف دائماً في مواجهة عدوه اللدود تيزكاتليبوكا (المرآة المدخنة). وفي نهاية المطاف ينتصر تيزكا تليبوكا ويطرد

كيتزالكواتل. وهذا النص من الأسطورة المنتشر إلى أبعد الحدود إنما هو إشارة إلى حدث تاريخي هو فتح وادي مكسيكو على يد غزاة برابرة هم أجداد الأزتك. فكيتزالكواتل يمثل الحضارة الكبيرة التي وجدها البرابرة في الوادي بينما يمثل تيزكاتليبوكا البرابرة أنفسهم.

ومن الغريب أن أسطورة شهيرة في كل منطقة البحيرات الكبرى من الولايات المتحدة الأمريكية تقدم لنا موضوعاً مطابقاً تماماً لهذا الانتصار على الثعبان الرائش. فهنا يقوم قرين تيزكاتليبوكا، وهو الطائر الرعد، فينتصر على روح المياه الذي هو قرين الثعبان الرائش كيتز الكواتل. فهنا يمثل طائر الرعد مرة أخرى غزوة بربرية قادمة من الشمال بينما يمثل روح المياه الحضارة الأكثر تقدماً. ومع ذلك ففي الشمال من ريوغراند تتناوب هاتان الشخصيتان الإلهيتان النصر فيما بينهما بصورة عامة على الدوام.

وثم نص آخر لهذه القصة المثيرة للفضول يكاد ينتشر في كل أمريكا الوطنية. وبموجب هذا النص ينتصر إله المياه الذي هو رمز للشر على عدوه المتمثل بنجمة الصباح ويحمل رأسه غنيمة له. إلا أن هذا النصر يكون مؤقتاً لأن إله المياه يهزم في النهاية على يد أبناء أخ البطل المهزوم.

ويبدو من المؤكد أننا هنا أمام أساطير متعددة تتعلق بكتزالكواتل وتيزكاتليبوكا. ومع ذلك فان واحداً من العناصر الجوهرية في نص المايا يبدو أنه اختفى عندما انتشر الإله ورمزه نحو الشمال، وهذا العنصر هو مظهره كطائر. على أن احدى القبائل البدائية التي تقطن إلى الشمال الغربي من ميتشيغان، وهي منطقة معروفة من الأمريكيين جميعهم بأنها كانت مسرحاً لمآثر الهياواتا، تقدم لنا صدى ضعيفاً لهذا المظهر الأول المعزو إلى هذه الذات الإلهية. فهنا يعتقدون بثعبان مائي تحميه الطيور

خدمة البشرية بحيث تصنع منها أدوية شافية أو مميتة، فهو إذن مزدوج الوظيفة هو الآخر، وفي هذه المنطقة ذاتها نلاحظ أن الأرواح المرتبطة بالزراعة يجب أن تكون محمية دائماً ضد مناورات الأرواح الشريرة كما هو حال إله الذرة تماماً لدى المايا.

وربما كان ظهور هذه الثنائية أوضح ما يكون لدى القبائل التي تعيش إلى الشرق من الوينيباغو حيث يسود هنا اعتقاد عام بروحين كبيرين أحدهما صالح والآخر شرير، وهو اعتقاد جعل المبشرين الفرنسيين الأوائل يذهبون خطأ إلى أن هنود هذه البلاد يؤمنون بالله وبالشيطان، مع العلم بأن هذين الإلهين كانا كل ما أمكن لهذه القبائل البدائية نسبياً أن تحفظه من ذلك التيار الديني القادم من أمريكا الوسطى.

ولقد كان من الطبيعي أن يكون عدد الاحتفالات كبيراً لدى المايا كما هو منتظر من حضارة كانت المعابد تلعب فيها دوراً كبيراً وحيث كانت الآلهة محددة تمام التحديد، فقد كان يوجد - إذا اختصرنا الموضوع - أربعة أنواع من الاحتفالات: الاحتفالات على شرف كبار الآلهة، والاحتفالات التي كانت تقام في مطلع وفي نهاية العام، وتلك التي يقوم بها مختلف أصحاب الحرف والطوائف، وأخيراً تلك التي لا تحدث إلا في بعض المناسبات الخاصة. وكانت كلها منظمة أحسن تنظيم وفقاً لتقويم معقد كل التعقيد. أما في بقية أمريكا الشمالية فكان أكثر هذه الطقوس أهمية هو احتفالات مطلع العام وتلك التي تقام على شرف آلهة الجهات الأصلية الأربع.

وكانت الصفات المميزة لأعياد مطلع العام هي تنظيف المنازل واصلاح الأدوات المنزلية وتجديدها وتطهير باحات المعابد بالبخور، وبخاصة الاحتفال بالنار الجديدة. وكثير من هذه الخصوصيات تشكل

العناصر الطقسية الأساسية لدى الكثير من القبائل التي تعيش على سواحل خليج المكسيك وإلى الشمال منه .

ولا يزال احتفال الجهات الأصلية الأربع واسع الانتشار حتى اليوم . فهو يشكل الوحدة الاحتفالية المميزة في كل أمريكا الشمالية لأنه يستند على ما يمكن اعتباره الأسطورة الكونية الأساسية للعالم الجديد . فبموجب نظرة المايا للكون تشكل الأرض مكعباً تنبثق من مركزه شجرة هي شجرة الحياة . ويمسك بالأرض أربعة من الآلهة هم الجهات الأصلية الأربع التي يرتبط كل منها بلون خاص . وليس في استطاعتنا أن نقدر حق التقدير معنى هذه الذوات الإلهية الأربع التي لولاها لما أمكن المحافظة على روح الاحتفال عند الهنود .

ومعرفتنا عن التنظيم الاجتماعي لدى المايا أقل من معرفتنا عن بقية العناصر في ثقافتهم . ولكن يبدو أنهم لم يكونوا يملكون ما يعادل التنظيم الاجتماعي الواضح الذي كان سائداً لدى الأزتيك وأقاربهم أو لدى الحضارات الكبرى التي كانت تزدهر بين المايا ووادي مكسيكو . ولقد بقيت ممالك المدن هي الوحدة السياسية النموذجية . وعلى الرغم من أن الأرض التي كانت تتبع كلاً من ممالك المدن هذه كانت تتسع وتنمو أحياناً نمواً كبيراً بحيث لا بد من أن تظهر فيها رقابة حسنة التنظيم فإن مركزية السلطة لم تكن تصل إلى مستوى أن تكون سلطة ملوك حقيقيين أو إلى مستوى تنظيم طبقي بالمعنى الحقيقي لهذا التعبير . أو على الأقل هذا ما كان من أمر يوكاتان ، وربما كان الأمر يختلف في القسم الجنوبي من أمريكا الوسطى .

وكان المايا يحافظون محافظة شديدة على نظام عائلي ذي سلالة أبوية ، وتشير كل الدلائل على وجود تكتلات ثنائية شبيهة بما هو موجود لدى قبائل الولايات المتحدة الأمريكية .

وكما هو منتظر كانت طبقة رجال الدين وحدها الطبقة المتكتلة. وكانت مهمة الكاهن الأكبر وراثية تماماً كمهمة رئيس القبيلة. والدور الذي كان يلعبه هذا الحبر الأعظم لحظة وصول الاسبانيين إلى البلاد كان دوراً هاماً وإن كانت الآثار والكتابات الوطنية التي وصلت إلينا تدل على أنه كان يتمتع في الماضي بدور أكبر من ذلك بكثير. ولا شك بأن لنا كل الحق في أن نعتقد بأن هذه المكانة التي كان يحتلها الحبر الأعظم كانت تتعارض بوضوح مع المكانة التي كانت تحتلها السلطة المدنية، وكانت تلك هي الحالة لدى الأزتك ولدى أقاربهم من قبائل الناهواتي الذين يعيشون في المكسيك الأصلية. فإذا كان تأكيدنا هذا سليماً فإننا نكون قد وجدنا عند المايا النموذج الأصلي لواحد من الأشكال الأساسية للحكم كان يسود على ثلاثة أرباع الأراضي التي تمتد نحو الشمال حتى كندا. وتبدو هذه الثنائية في السلطة بأوضح معانيها لدى الإيروكوا والسيو وبعض قبائل الألغونكان حيث نجد زعيمين وراثيين ترتبط وظائف أحدهما بالحرب بينما ترتبط وظائف الثاني بالسلام.

ونحن لا نستطيع - كما لاحظنا - أن نتكلم عن ملوك عند المايا ولا عن تسلسل اجتماعي حقيقي. على أننا لا يجب مع ذلك أن نقلل من تقديرنا للفصل الواضح الذي كانوا يقيمونه بين الأغنياء والفقراء، بين الزعماء والكهنة من جهة وبين بقية الشعب من جهة أخرى. وكان الكهنة يضمون في صفوفهم كل مثقفي الأمة. وفي حضارة يسيطر عليها الدين هذه السيطرة الشديدة كحضارة المايا لا يمكن أن يظهر مفكرون علمانيون أو فنانون علمانيون، ومن هنا كان الكاهن والمفكر لفظين مترادفين، فالكهنة إذن هم من يعود إليهم فخر الكشفين العظيمين اللذين يمكن أن يفخر بهما أي شعب سواء كان متحضراً أو غير

متحضر، هذان الكشفان هما اختراع الكتابة الهيروغليفية وخلق تقويم صعب يعتمد على حسابات فلكية شديدة التعقيد.

أما الكتابة الهيروغليفية لدى المايا فلا تذكرنا بأي نظام للكتابة معروف لدينا. وكما كان الأمر في مصر القديمة فإن هذه الكتابة كانت أساساً كتابة تصويرية، ولا بد أنها كانت تهدف ـ كما يبدو لنا حتى الآن ـ إلى تصوير الشيء المراد التعبير عنه، ثم ما لبثت مع الزمن أن صارت ترسم من الشيء بعض أجزائه، ثم بعد ذلكم تطورت هذه الرموز حتى انقلبت إلى مجموعة من الاشارات (أو الهيروغليفيات) التي لم يعد بالإمكان مطابقتها مع الأشياء التي تعبر عنها دون مساعدة من دليل.

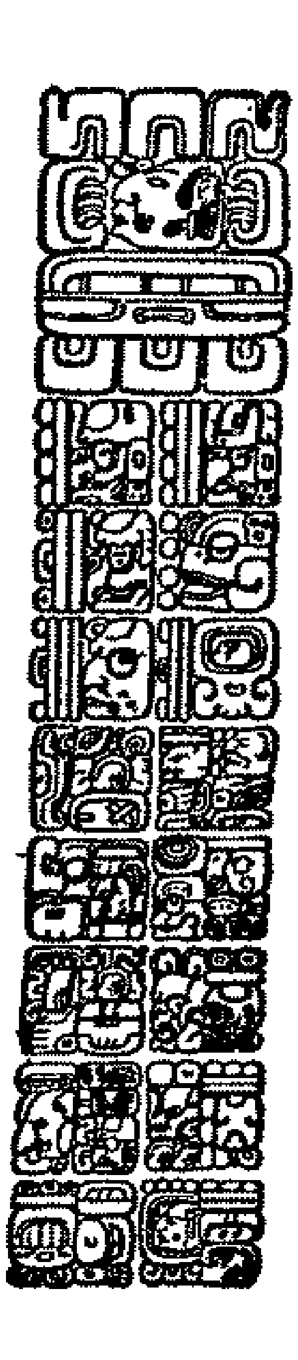
وقد أدى هذا التطور التدريجي في الاشارات الهيروغليفية في بعض الحالات إلى حذف كل العناصر التي لم تكن ضرورية ضرورة لازمة فيها. والضروري منها يمكن أن يختصر مثلاً إلى حزمتين صغيرتين متصالبتين أو بكل بساطة إلى علامة نجمية. على أن ثمة صعوبة أخرى في القراءة تكمن في أن المايا لم يجانبوا أبداً الناحية الفنية الخالصة في كتابتهم وإنما شغلوا أنفسهم كثيراً كي يتوصلوا إلى رسم متوازن ومتناغم دون أن يأخذوا بعين الاعتبار التعديلات والاعوجاجات التي تلحق على هذا الشكل بالكتابة الهيروغليفية. وكانت الفجوة التي تفصل أحياناً بين الكلمة وإشارتها كبيرة لدرجة أن بعض المؤلفين تساءلوا ما إذا كانت كل الإشارات الهيروغليفية ذات أصل تصويري. ومع ذلك فإنه على الرغم من هذا الميل إلى الاختصار والنمنمة فقد احتفظت بعض الاشارات دائماً بأصولها التصويرية.

وإلى جانب هذا الميل إلى الابتعاد عن تصوير الأشياء نجد ميلاً واضحاً لاستعمال بعض الرموز الهيروغليفية للدلالة على الأصوات.

فالإشارة التي تمثل الشمس مثلاً لفظها «كين KIN» . ولكن هذا الحرف الصوتي يدخل في تركيب كثير من كلمات المايا دون أن يكون له معنى الشمس لأنه انقلب إلى مجرد مقطع صوتي . وهناك مجموعة من هذه المقاطع هي التي يكمن في وضوحها أملنا في أن نتوصل يوماً لفك أسرار كتابة المايا الهيروغليفية . ومع ذلك فإن هذه العناصر الصوتية تبدو مرتبطة بمقاطع لا بأصوات منفصلة مما يساهم في جعلها أشد استعصاء على الفهم .

وتتمثل هذه الرموز الهيروغليفية في شكلين يختلف أحدهما عن الآخر بعض الاختلاف . الشكل الأول هو ما كتب على الآثار والشكل الثاني هو المخطوطات التي تمت كتابتها قبل عصر كريستوف كولومبوس بقليل ، ولنسم هذا العصر بالعصر الكولومبي . كما يمكننا أن نصنف هذه الكتابات في نوعين ، أولهما كان يستخدم في حساب الزمن ، والثاني ربما كان له بالاشتراك مع الأول صفة تفسيرية .

على أن معظم الرموز الهيروغليفية لها صفة الحسابات الزمنية وإن كان الكثير منها أيضاً يدل على أحداث تاريخية . وهي لا تدل فقط على على التاريخ الذي أنشىء فيه هذا المبنى أو ذاك وإنما يبدو أنها تروي للخلف أيضاً ما جرى من أحداث معاصرة . وقد ادعى بعض قدماء المؤرخين الإسبانيين أن بعض الكتب الأكثر قدماً إنما استخدمت لأغراض كثيرة من بينها مثلاً تحديد أيام الفأل وأيام النحس ، أو تجنب الشرور ، أو التنبؤ بالمستقبل ، وثمة الكثير من الدلائل التي تؤيد هذا الادعاء . ويحق لنا أن نعتقد بأننا لو دفعنا ببحوثنا إلى الأمام فإننا سنتوصل إلى اكتشاف أن هذه الرموز الهيروغليفية إنما تعني أشياء مختلفة كل الاختلاف ، من أشخاص ومدن وتقسيمات سياسية وأعياد وأضحيات وقبائل وولادة وموت وانتصار ومواضيع أخرى كثيرة أيضاً .



(كتابة هيروغليفية من المايا)

أما في الوقت الحاضر فإننا لم نتوصل إلى شيء من ذلك . ومعلوماتنا الحالية لا تعدو مع الأسف عدداً صغيراً من هذه الرموز. فنحن لا نعرف حتى الآن إلا الإشارات التي تدل على الأيام والأشهر وبعض الأزمان ، وكذلك الأعداد من الصفر إلى العدد ١٩ ، والجهات الأصلية الأربع مع الألوان الأربعة التي ترتبط بها ، وبعض الآلهة ، والشمس والقمر والزهرة والمريخ وعطارد وبعض النجوم الأخرى ، كما أن بعض الرموز الهير وغليفية أخيراً تنطبق وتدل على أشياء مادية .

وإنه لمن المفيد أن نشير إلى موضوع الأعداد من الصفر إلى العدد التاسع عشر ، ذلك لأنها تتشكل من صور عشرين إلهاً ، وهذا الترقيم لا يستعمل إلا في الحالات المعقدة ، ذلك لأنه يوجد إلى جانب هذا الترقيم ترقيم آخر أبسط منه حيث يمثل العدد واحد بنقطة والعدد اثنان بنقطتين ، والعدد خمسة بخط صغير ، والعدد ستة بخط صغير ونقطة ، والعدد ١٥ بثلاثة خطوط صغيرة . . وهكذا . أما الصفر فتمثله صورة قوقعة . وهكذا نستطيع أن نفهم إلى أي مدى كان المايا يستعملون الأعداد ، مع العلم بأنهم كانوا يملكون نظاماً من ثماني وحدات كانت كل واحدة منها أحد اضعاف العدد عشرين . فإذا بدأنا من الواحد كان لدينا مجموعة متزايدة بحيث نصل إلى ٢٠×١ و ٢٠×٢٠ ، و ٢٠×٤٠٠ ، و ٢٠× ٨٠٠٠ وهكذا حتى نصل إلى رقم بالغ الضخامة هو العدد ١٢٨٠ ٠٠٠ ٠٠٠ .

والرموز التي نعرفها خيراً من غيرها من هذه الهير وغليفية هي تلك التي تدل على الزمن والتقويم . والكشوف التي تقودنا إليها هذه الرموز تدل على أن المايا بلغوا شأواً لا يصدق في معلوماتهم الفلكية . ولا ينبغي علينا بطبيعة الحال أن يسهو عن بالنا أن الكتابة الهير وغليفية كانت كتابة مقدسة وانها كانت معروفة حصراً من طبقة وراثية من

الكهان الذين يعدون جيلاً بعد جيل لكي يكرسوا أنفسهم لهذا العلم. أما العامة فلم يكن يهمهم ذلك في شيء.

من هذه الجهود التي بذلها المايا نجم أمران أساسيان في تقويم الزمن، أولهما أنهم كانوا يعرفون السنة القمرية ذات الاثني عشر شهرا وذات الثلاثين يوماً في كل شهر. والأمر الثاني أنهم خلقوا دورة اصطلاحية أخرى تتألف السنة فيها من ثلاثة عشر شهراً والشهر من عشرين يوماً، وهذه السنة الأخيرة هي التي تشكل العنصر الأساسي في تقويم المايا، كما أنها ظهرت بين كل الشعوب التي تأثرت تأثراً مباشراً بهذه الحضارة.

ولم يكن المايا يقتصرون على تحديد السنة القمرية تحديداً دقيقاً وانما كانوا يعرفون كيف يطابقونها مع السنة الشمسية ايضاً بإضافة خمسة أيام في نهاية كل عام. كما أنهم كانوا يأخذون السنوات الكبيسة بعين الاعتبار ولكن دون أن يضيفوا ـ في أغلب الظن ـ يوماً إلى مثل هذه السنوات. يضاف إلى ذلك أنهم قلصوا عدد أيام الشهر من ثلاثين إلى عشرين يوماً بسبب نظامهم الذي كان يعتمد ـ كما رأينا في الترقيم ـ على العشرين ومضاعفاتها فرفعوا بذلك عدد أشهر السنة من اثني عشر إلى ثمانية عشر شهراً.

أما الآن فلندخل في تلك المتاهة المدهشة الغريبة التي وصلت إلينا من علماء الفلك من المايا. فقد تضافرت ثلاثة شروط ضرورية لكي يظهر عندهم هذا التقويم التالي: معرفة الدورات الفلكية، وخلق نظام كامل للعد، واختراع السنة الطقسية ذات المائتين وستين يوماً.

وقد أنشئت هذه الدورة الاصطلاحية ذات المائتين وستين يوماً بدافع من عاملين: مجموعة من الأعداد (من ١ إلى ١٣)، ومجموعة من عشرين اسماً ربما كانت في الأصل تدل على الأيام. وهاتان

المجموعتان ـ كما يقول مؤلف خبير في هذه المادة هو الدكتور سبيندن «تندمجان مثل دولابين مسننين في أحدهما ثلاثة عشر سناً وفي الآخر عشرون. فدولاب الأعداد الصغير يقوم بعشرين دورة بينما دولاب الأيام الأكبر يقوم بثلاث عشرة حيث ينطبق الدولابان بعد ذلك على بعضهما بعد أن كانا متطابقين في بدء العملية أيضاً. وهكذا فإن اليوم الذي يحمل الرقم نفسه والاسم نفسه لا يعود إلا مرة واحدة كل مائتين وستين يوماً ١٣×٢٠.

وإلى جانب هذه السنة المصطنعة يقدم لنا تقويم المايا ثلاث خصائص أخرى يطلق عيها اسماء: دورة التقويم، والتقويم الكبير، وتقويم الزهرة.

والدخول في تفاصيل هذه التقاويم أمر شديد الصعوبة والتعقيد، وإن كانت دراستها قد تمت على يد أخصائيين حتى أصبحت مفهومة كل الفهم. ويقودنا هذا إلى معرفة أن المايا، أو المثقفين منهم من رجال الدين، كانوا يتمتعون بحصافة ودقة متناهية في حساباتهم وإن كانوا فيها شديدي التعقيد ولم يتمكنوا من الوصول إلى تقويم مبسط. وقد اعتقدوا في تقاويمهم أن ثمة يوماً محدداً لخلق العالم وأن هذا العالم سينتهي بعد أربعة وثلاثين ألف عام دون أي شك أو تردد في تحديد هذا التاريخ.

والأرقام التي نجدها في حساباتهم، حسابات السنين والأيام، أمر يثير الدوار. ويزداد هذا الدوار فينا أيضاً عندما نتذكر أن هذا الشعب هو الذي اخترع الصفر وأدخله في حساباته قبل ما يقارب الثمانية قرون من معرفته في العالم القديم.

فمن هو إذن هذا الشعب الخارق وماذا نعرف عن أصل هذه الحضارة المدهشة؟. يبدو أن هذه الحضارة انبثقت فجأة واختفت أيضاً

بطريقة شديدة الغموض. وقد وضعت كثير من النظريات حول أسباب ظهورها وانحطاطها ولكن معارفنا عنها لا تتعدى ما يلي: في نحو من عام ١٠٠ قبل الميلاد كان النظام الهير وغليفي فيها قد بلغ أقصى تطوره وإن أصبح قديماً بعض الشيء بالنسبة للأسلوب الذي ساد في القرن الذي يليه. فأين ومتى ولد هذا النظام؟، هذا ما نجهله كل الجهل. والكتابة الهير وغليفية الأكثر قدماً إنما وجدت على تمثال صغير، بينما كان تاريخ الكتابة التي تبعت ذلك متأخراً بحوالي مائتي عام. ثم، ومن دون أن نجتاز مرحلة وسطى، وجدنا التلال «MOUNDS» الاصطناعية الضخمة التي تضم معابد شديدة التعقيد وساحات عامة ومسلات وهياكل. ولم تكشف لنا التنقيبات في أي مكان عن وجود ثقافة أقدم يمكن أن تكون أصلاً لهذه الحضارة الرفيعة. حقاً تم اكتشاف اشارات تدل على ثقافة بدائية على هامش هذه الحضارة الرفيعة ولكنها لم تكن أبداً تحت أنقاض حضارة المايا. وعلى ذلك فليس لنا أن نعتقد في الوقت الحاضر أن أشكالاً أكثر بدائية كانت سابقة للثقافات المتطورة التي ظهرت في يوكاتان وفي أمريكا الوسطى.

وبغياب البراهين التي تثبت حدوث تطور تدريجي في حضارة المايا في أمريكا الوسطى ويوكاتان، واعتماداً ـ من جهة أخرى ـ على بعض أوجه التشابه التي تقدمها خرائب المايا وثقافتهم مع بعض حضارات آسيا افترض بعض العلماء أن حضارة المايا إنما تمتد بأصولها إلى العالم القديم. ولكن هذه النظرية تصطدم بصعوبات كبيرة لا تقل عن تلك التي تحاول القول بالأصل الامريكي لهذه الحضارة، والصعوبة الأثر وعورة هي مسألة التوقيت، ذلك لأن الحضارة التي يفترض أن المايا استعاروا منها عناصر حضارتهم لم تكن موجودة قبل العام ٦٠٠ ب.م. على أبكر تقدير، بينما تعود حضارة المايا كما تبرهن على ذلك معلوماتنا

الحالية إلى حوالي العام ١٠٠ ق.م على الأقل. فمن أجل أن نتبنى مقولة أن حضارة المايا تعود بأصولها إلى العالم القديم ينبغي علينا أولاً أن نتغلب على هذه الصعوبة سواء بأن نثبت أن فهمنا الحالي لنظام الترقيم عند المايا هو فهم خاطىء، أو ان نثبت أن الحضارة الأسيوية التي انبثقت عنها حضارة المايا كانت أقدم بكثير مما كان يعتقد. أما في الوقت الحاضر فإن المشكلة تبقى بدون حل*.

وتاريخ حضارة المايا تسيطر عليه ظاهرة أساسية هي الفترة الوجيزة التي تمت بها سكنى كل واحدة من مدنها. كما ان ثمة ظاهرة اخرى هي أن مدناً بل ومناطق بكاملها تم هجرها دون أن يتوصل أحد لاكتشاف سبب ظاهر لما حدث. كما أن أحداً لم يستطع أن يفسر هذه الهجرات الدائمة: ترك هذه المدينة فجأة وبناء غيرها في وقت قصير. وقد لجأ الباحثون من أجل تفسير ذلك لكل أنواع الفرضيات بدءاً من الملاريا حتى التغيرات المفاجئة للمناخ أو ضغط قبائل من الغزاة أو غير ذلك من أنواع المصائب. ولكن أية واحدة من هذه الفرضيات لم تكن وافية بالغرض وبقي اللغز دائماً مستعصياً على التفسير.

وقد قسم العلماء تاريخ حضارة المايا إلى عدد من الأحقاب واضحة الفصل بحيث يتميز كل واحد منها بأسلوبه الفني الواضح، وتمتد الحقبة الكبيرة الأولى ما بين عام ١٧٦م حتى عام ٣٧٣م. والمواقع التي ترتبط بهذه الحقبة تقع كلها إلى الجنوب من يوكاتان. وكان النحت في هذه الحقبة لا يزال قاسياً حاد الزوايا، والتصوير الجانبي

---

* ـ لم يذكر المؤلف اسم الحضارة الأسيوية التي ظهرت سنة ٦٠٠ للميلاد والتي يعتقد بعض الباحثين أنها أصل لحضارة المايا وحروفها الهيروغليفية.

ـ المترجم ـ

أفضــل من التصـوير الأمامي في الأشكال الانسانية ، وكانت كل تقاليد المـايـا الفنيـة قد وجـدت في هذه الحقبـة كما بدأ الثعبـان الرائش يبارس وظيفته ، أما الحقبة التالية وهي الحقبة المتوسطة فتمتد بين عامي ٣٧٣ ـ ٤٧٢م وتضـم بعضـاً من أجمـل التحف الفنيـة . وقـد تميـزت في ميـدان النحت بنقـاء الأسلوب وبسـاطـة تمثيل المـواضيع . ولم يكن الأسلوب المتموج في الخطـوط والـزخـارف الذي يميز الأحقاب اللاحقة قد ظهر بعـد . ثم تأتي الحقبـة العظمى التي تمتـد ما بين عامي ٤٧٢ ـ ٦٢٠م فتستمر مائـة وخمسين عامـاً حيث يتقدم فن البناء بسرعة كبيرة فتصبح الغـرف أكثـر اتسـاعاً والجدران أكثر رقة والأشكال أقل غلظة وحسابات التدوين تعالج مواضيع فلكية تتزايد تعقيداتها يوماً بعد يوم .

فبـين عامي ٤٧٢ ـ ٦٢٠م ازدهـر أعظم عصـر في حضارة المايا ، ثم ما لبثت أن انتهت بشكل فجائي . ولا بد أن مصيبة ما قد حلت بهذه المـدن الـتي بلغـت غايـة الازدهـار . وقـد تحدث بعض الـعـلماء عن حرب أهليـة ، وتحـدث آخـرون عن وبـاء ، وآخـرون عن انحطـاط لحق بالمجتمـع . ولكننـا في الـواقـع لا نعـرف شيئـاً واضحـاً ومؤكـداً لأن تلميحات المؤرخين الذين عالجوا هذه الحقبة القديمة أتت بالغة الإيجاز .

في حوالي عام ٦٠٠ للميـلاد كانت كل مدن المـايـا قد هجـرت ونجم عن ذلـك هجـرة نحو الشمال . وامتدت فترة الانتقال هذه ما بين عامي ٦٢٠ ـ ٩٨٠م . وكـان فن البنـاء في هذه الفـترة لا يزال متـماسكاً ولكن النحت التزييني كان قد اختفى تماماً من الوجود .

وعـرفت الفـترة ما بين عامي ٩٨٠ ـ ١٢٠٠م حركـة يمكن أن نطلق عليها اسم عصر النهضة . ومع ذلك بقيت أساليب البناء والتزيين اكثـر شكليـة مما كانت عليـه في الأحقـاب السـابقـة ، بينما ظهـرت أفكـار

جديدة منها الرسم على الخشب على سبيل المثال، ومساحات مستطيلة الشكل صنعت فيها أشكال نحت كل منها على حدة ليتشكل منها فسيفساء، كما ظهرت وجوه هندسية الشكل على الطريقة الاغريقية، واعمدة على شكل حُزم ومشبكات على أشكال منحرفة.

أما الحقبة التالية فكانت عصر الانحطاط. ودامت ما بين عامي ١٢٠٠ - ١٤٥٠م، وانتهت بتدمير المدينة التي كانت قد لعبت دوراً من الدرجة الأولى في الحقبة السابقة. والصفة المميزة لهذه الحقبة الأخيرة هي النفوذ الذي مارسته على حضارة المايا كما يبدو حضارة شمالية لم تكن في جوهرها إلا اعادة صياغة للعناصر الثقافية التي كان المايا قد نشروها هم أنفسهم قبل العديد من القرون. وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول بأن حضارة المايا تبدلت بتأثير ثقافة أخرى فرضت نفسها عليها وكانت قد نشأت نتيجة للتعاون بين جدود المايا وبين الشعوب الهمجية التي كانت تسكن في الشمال.

تلك كانت حضارة المايا. وكان بهاؤ ها قد انطفأ منذ أكثر من نصف قرن عندما بدأ الإسبانيون بعملهم التخريبي المشؤوم. ولم يكونوا يقيمون أي اعتبار لكسوف هذه الحضارة الوطنية التي وجدوها في العالم الجديد. ولا يمكن أن يعزى هذا التفكك الكلي الى ضعف سياسي داخلي كما كانت الحالة بالنسبة لبلاد اليونان القديمة، وانما علينا من أجل تفسيره أن نتوجه بأنظارنا إلى الشمال من أمريكا الوسطى ويوكاتان، إلى مقاطعات كانت تجوب في أرجائها قبائل همجية. وبضربة من سوء الحظ مر الفاتح الإسباني الكبير فرنان كورتيز على بعد ثلاثة فراسخ من كوبان COPAN دون أن يخطر في باله ازدهار حضارة رائعة في هذا المكان هي حضارة المايا، وانما اكتسب شهرته من أنه فتح مدينة كانت في الواقع قد أقيمت فوق انقاض هذه الحضارة الرفيعة.



الفصل الثالث

المكسيكيون القدماء

بعد أن قام كورتيز بالاستيلاء على مكسيكو أرسل إلى أسبانيا اكثر الأشياء إثارة للفضول، أشياء كانت فيما مضى جزءاً من كنوز مونتيزوما السيء الحظ. وقد ذهبت أفضل هذه التحف بطبيعة الحال إلى الامبراطور شارل الخامس. ولم يكن هذا العاهل نفسه، على الرغم من صلفه وميله إلى التشاؤم والتطير، يتوقع النتائج المأساوية التي ستنجم عن لقاء هاتين السلالتين المالكتين: هابسبورغ ومونتيزوما. فقد مارست المكسيك خلال ثلاثة قرون سحراً مشؤوماً على أحفاد الامبراطور الكبير حتى كان عام ١٨٦٦م حيث رُمي بالرصاص واحد من سلالة شارل الخامس على يد شرذمة من الجنود كان يقودها رجل من سلالة هؤلاء الهنود الذين كان كورتيز قد أعمل فيهم فيما مضى مذبحة لا رأفة فيها دون أن تطرف له عين.

ولقد أصبح غواتيموتزينو قائد الأزتك السيء الحظ الذي عُذِّب حتى الموت على يد رعايا شارل الخامس المخلصين، ومكسيمليان

الأشقر أخو امبراطور النمسا فرانسوا جوزيف الذي أعدم بدون محاكمة رمياً بالرصاص وعيناه معصوبتان في ميدان كيريتارو بعد ذلك بثلاثة قرون، أصبح هذان الرجلان موضوعاً لمأساة ذات روعة تأخذ بمجامع القلوب . وكان هذان الحادثان قد جذبا انتباه رجل واحد هو الشاعر الايطالي كاردوتشي الذي نظم قصيدة سماها ميرامار لخص فيها مصائر ال هابسبورغ بدءاً من ابنة فردناند وإيزابيل المعتوهة حتى مكسيمليان ومروراً بماري أنطوانيت التي قضت نحبها تحت مقصلة الثورة الفرنسية . وقد أظهر مكسيمليان المتباهي الطموح خاضعاً لجاذبية الغابة الاستوائية حتى وقع ضحية لآلهة الأزتك القدماء وبخاصة لأكثرهم قسوة الإله الرهيب هويتزيلوبوشتلي الذي فخر بأنه وجد أخيراً في شخص حفيد شارل الخامس الأشقر نفسه الضحية القربانية التي تليق بمقامه .

فمن هو هويتزيلوبوشتلي الذي بعثته إلى الحياة قصيدة شاعر من القرن التاسع عشر؟ . . إذا تمكنا من النفاذ إلى جوهر هذا الإله فإننا سنفهم دفعة واحدة مرتكزات الحضارة المكسيكية القديمة .

بعد الفتح لم يكن الأزتك أنفسهم ينظرون إلى هذا الإله إلا على أنه إله مخرّب، شبح مخادع، كما يشهد على ذلك الغناء التالي :

لم يكن هويتزيلوبوشتلي إلا رجلاً كالآخرين .
كان ساحراً ونذير شؤم
كان مثيراً للمنازعات والرؤى المفزعة
هو الذي خلق الحرب . يجمع المحاربين حوله ويصدر إليهم الأوامر
ويروى أنه أطلق على شعبه
الثعبان الأزرق صانع النار والحرب

وعندما كانوا يحتفلون بعيده
كانوا يضحون له بالأسرى
كانوا يضحون له بأسرى غُسلوا حسب الطقوس.

على أن أمره لم يكن كذلك قبل الفتح. فقد كنا نراه جالساً على عرش أزرق ذي أربع زوايا يخرج منها أربعة من الثعابين. وعلى رأسه ترتفع خوذة جميلة على شكل منقار طير. وحول عنقه عقد فيه حبات على هيئة قلب الإنسان. وإليك وصفاً له قدمه إلينا كلافيجير والمؤرخ الذي عاش في القرن الثامن عشر: «كانت جبهته زرقاء، وكان وجهه مستوراً بقناع ذهبي بينما كان قناع آخر يغطي على ما يبدو الجزء الخلفي من رأسه. وكان يمسك في يده اليمنى هراوة زرقاء على شكل دبوس، وفي اليسرى ترساً على شكل خمس من الريشات المتصالبة، ويخرج من أعلى الترس علم مذهب يحمل أربعة سهام، ويلتف حول جسمه ثعبان ضخم، كما أنه يتزين فضلاً عن ذلك بتماثيل صغيرة لحيوانات مصنوعة من الذهب أو من الحجارة الثمينة».

ولم يكن له بحسب الأسطورة أب، وإنما حملت به أمه بسبب الرعب. وعندما تكتل أخواله للفتك بأختهم عندما كانت حاملة به تمكنت من ولادته قبل أن يتمكنوا من تنفيذ مأربهم، وقد وُلد الإله مرتدياً عدة الحرب مثل أثينا عند اليونان، الترس في يد والحربة في اليد الأخرى، ثم ما لبث أن انقض غاضباً على اعداء امه فشفى منهم غليله واكتسب لقبه الذي استحقه بعمله هذا إلهاً للرعب، أو كما كان يطلق عليه في أحيان أخرى: الإله الرهيب.

وبما أنه كان إلهاً للحرب، واعترافاً بما قدمه لهم خلال قيادته لهم في هجراتهم منذ سكناهم السالفة في منطقة الكهوف السبعة، فقد شاد الأزتك معبداً على شرفه عندما فتحوا الموقع الذي أقاموا فيه مدينة

مكسيكو ـ تينوشتيتلان. وقد بني هذا المعبد بالحجارة الضخمة التي تبدو فيها نقوش لثعابين مربوطة مع بعضها لتشكل طوقاً أطلق عليه بحق طوق الثعبان . وانتشرت في كل غرفة أصنام تعلوها وتعلو كل شيء في المعبد شرفات لها هيئات حلزونية. وتقابل الجهات الأربع فيه أبواب أربعة رائعة الجمال ينفتح كل منها على طريق معبدة يتراوح طولها ما بين عشرة وخمسة عشر كيلو متراً. وعلى بعد ثلاثين خطوة من المكان كانت توجد حظيرة تحيط بها أشجار كبيرة تربط بينها أوتاد قد ثبتت فوقها رؤوس بشرية. وقد تمكن المؤرخ الاسباني الشهير أكوستا من رؤية هذا المنظر فنال منه الهلع والرعب. ويصف لنا هذا المؤرخ المنظر فيقول: «كانت هذه الحظيرة مليئة من طرفها إلى طرفها برؤوس الأموات مما جعل منها منظراً مؤلماً ومرعباً في نفس الوقت. لقد كانت تلك الرؤوس رؤوس أولئك الذين ضُحي بهم. فبعد أن يموت الضحايا يؤكل لحمهم كان يعهد برؤوسهم إلى الكهنة الذين يربطونها بهذه الأوتاد حتى تسقط بعد ذلك فتاتاً إلى الأرض».

وكان عيد هويتزيلو بوشتلي الكبير مناسبة لتسليات عامة. ففيه يضحى بعدد كبير من الأشخاص، ويتهيأ الكهنة للعيد بكفّارات تمهيدية تدوم أربعة وعشرين يوماً. ويلوّن التعساء الذين يعينون للتحضية بهم في هذا العيد بألوان الإله. وعندما يقترب موعد التضحية بهم يلبسونهم فاخر الحلي ويتم التطواف بهم من حي إلى حي ومن مدينة إلى مدينة. ويقسم العبيد المخصصون للتضحية إلى معسكرين حيث يطلب منهم أن ينخرطوا مع بعضهم في قتال تسيل فيه الدماء. وأخيراً يصل أحد المواكب التي تجوب شوارع المدينة إلى قمة المعبد الكبير منقطعة الأنفاس حيث تثقب هنا آذان الرجال ويعودون بعد ذلك حاملين في أذرعهم صورة للإله من العجين لا تلبث أن تقسّم

قطعاً وتوزع على المشتركين في العيد حيث يأكلونها في بيوتهم بكل احترام . وينتهي العيد بالفرحة الكبرى عندما تأذن ساعة تنفيذ الموت بالأسرى والعبيد على أنغام موسيقية تصدرها أنواع من الأصداف .

ذلك هو الإله الحامي لمدينة الأزتك تينوشتيتلان . ومهما كان شأن الرعب الذي عاناه الكهنة الإسبانيون أمام قسوة هذه العبادة فإنهم ما لبثوا أن أفادوا في مهمتهم التبشيرية من بعض أوجه التشابه في الطقوس كتوزيع صورة للإله من العجين ، وهو الاحتفال الذي كان يسميه الأزتك أنفسهم : «لقد تم أكل الإله» .

ولقد كان هويتزيلوبوشتلي ـ شأنه في ذلك شأن الأزتك ـ قادماً جديداً على وادي مكسيكو . وتقول الإسطورة إن أصله من مقاطعة بعيدة ربما كان من الممكن مطابقتها مع المنطقة الجنوبية الغربية من الولايات المتحدة الأمريكية . ويروى أنه ـ كما كان شأن موسى ـ قاد عباده عبر صحارى غير مسكونة في الجنوب الغربي ، ثم قطع بهم هضاب المكسيك الشمالية الجافة القاسية أيضاً حتى وصل بهم إلى وادي أناهواك الخصيب حيث بنيت مدينة مكسيكو فيما بعد . وقد تعرض هؤلاء المسافرون مرات عديدة لأنواع من المصائب والهزائم والخيانات ولكنهم تمكنوا بفضل جهود هويتزيلوبوشتلي التي لا تعرف الكلال من الانتصار على كل ما اعترض سبيلهم من صعوبات . وقد وصلت إلينا قصة هذه الهجرة التي قاموا بها ، وهي لا تلخص لنا ماضيهم التاريخي فحسب وإنما تمدنا أيضاً بمعلومات عميقة عن نفسية الأزتك وعن تطور مثلهم العليا .

والأزتك ـ بحسب كل الاحتمالات ـ لم يتركوا موطنهم القديم قبل عام ٨٠٠ للميلاد . وكانوا يومذاك شعباً متمدناً بما فيه الكفاية لأنهم كانوا قد خضعوا لعدة تأثيرات ثقافية أتتهم كما رأينا من الجنوب حتى

وصلت إلى الولايات المتحدة. فإشعاع حضارة المايا الكبيرة الخيرة، وكذلك إشعاعات الثقافات التي يحتمل انها وصلت من امريكا الجنوبية، كل ذلك وصل إليهم وجعل من هؤلاء البداة النهابين أمة حضرية منظمة.

وكان الأزتك، بعد أن خرجوا من موطنهم نصف الأسطوري الذي يسمونه الكهوف السبعة، آخر من دخل إلى مسرح الأحداث. وكانت قد سبقتهم إليه ست من قبائل الناهواتل الكبرى التي كانت من أقربائهم المقربين والتي كان عليهم أن يقارعوها من أجل ان يتوصلوا إلى السيادة على وادي مكسيكو. وكانت أولى القبائل التي اتجهت نحو الجنوب تلك التي يطلقون عليها اسم «زارعي الأزهار». وتلاهم «شعب الأفواه»، ثم «شعب الجسر»، ثم «شعب الممرات الملتوية»، «فشعب الداخل» وأخيراً «شعب الذرة الصفراء». وكان الأزتك آخر من تركوا بلادهم الغامضة الكهوف السبعة جالبين معهم إلههم هويتزيلو بوشتلي. وهذا الإله كما يدّعون هو الذي أمرهم بترك بلادهم واعداً إياهم بالسيطرة على كل المقاطعات التي كانت قد استقرت فيها القبائل الست التي سبقتهم من الناهواتل، وهي بلاد غنية بالذهب والفضة والمعادن الثمنية وغيرها من المواد القيّمة.

وبعد أن شجعتهم هذه الوعود بدؤوا سفرهم الشاق. وحتى في الزمن الذي حدث فيه الفتح الاسباني للبلاد كانت لا تزال كثير من الخرائب تدل، حسب مقولتهم، على الأماكن التي كانوا قد توقفوا فيها ليرتاحوا من عنائهم وما كانوا يقومون به من مغامرات.

في كل مكان كانوا قد توقفوا بعض الوقت. ولم يكن يفوتهم أن يقوموا خلال ذلك بأمرين: إقامة معبد لإلههم الحامي وزراعة الذرة الصفراء. ولم تكن هذه الأخيرة تغلّ عليهم دائماً لأن الماء كان ينقصها،

ووجب عليهم أن يعتمدوا في سقايتها إما على الندى أو على عواصف الأمطار العابرة. ويبدو أن الأزتك لم يكونوا يهتمون في الواقع اهتماماً كبيراً بالزراعة، ذلك لأنهم لم يكونوا يقومون بالحصاد إلا اذا أمرهم إلههم بذلك.

وأخيراً بلغوا المنطقة المكسيكية التي تسمى اليوم ميتشواكان. وفي هذا المكان حدث أول انفصال في قلب هذه القبيلة. فالبعض من كهنة هويتزيلوبوشتلي أحبوا المكان حباً جماً حتى طلبوا من إلههم الرهيب أن يسمح لهم بالبقاء فيه. وحقق الإله مبتغاهم. أما الآخرون فقد تابعوا رحلتهم ليجدوا أنفسهم أمام مصاعب تختلف عن تلك التي كانوا قد واجهوها حتى الآن. فقد قامت اضطرابات داخلية فيما بينهم بتحريض من أخت الإله نفسه، وكانت امرأة بارعة الجمال ولكنها أسلمت نفسها للسحر، والذين كانوا قادرين على مقاومتها كانوا نادرين. وقد حزنت حزناً كبيراً عندما أحيط أخوها الإله علماً بما كانت تسببه من شرور. وكان قد ارسلها إلى عباده وهو يأمل أن تشد في عضدهم وتنفخ في شجاعتهم، فلما يئس من تحقيق هذا الهدف نصح رعاياه بأن يهجروها سراً وهذا ما فعلوه. ولقد أنشئت مدينة مالينالكو على يد أحفاد هذه المرأة، وكان سكانها زمن الفتح لا يزالون يشتهرون ببراعتهم في فنون السحر الأسود.

ثم وصل المهاجرون إلى مكان اسمه تولا. ورغم أنهم أصبحوا قليلي العدد بسبب رحلتهم الطويلة الشاقة فإن هويتزيلوبوشتلي قرر أن يبرهن لهم مرة أخرى عن وفائه بعهوده. فأقام لهم سداً على مجرى نهر غزير كان يروي المنطقة حتى ملأت المياه كل الوادي واخترقته حتى داخل الجبال التي كانوا فيها يعيشون. وكان يرغب بعمله هذا أن يعطيهم فكرة عن الأراضي التي وعدهم بها. ولكنهم ـ وكما كان يجب

عليه أن يتوقع ـ وجدوا هذا المكان ممتعاً جداً ورائعاً جداً حتى أنهم نسوا أنه لم يكن إلا مجرد نموذج قُدم إليهم عن الأرض الموعودة، فعبروا عن رغبتهم في أن يبقوا فيه حتى وصل الأمر ببعضهم إلى الادعاء بأنهم وصلوا إلى الأراضي التي خصصها القدر لهم والتي كانوا يبتغون.

وكان عقاب الإله الرهيب لا رحمة فيه. ففي احدى الليالي سمعوا ضجة مخيفة في المعسكر، وفي الصباح وُجد كل الذين أظهروا رغبتهم في البقاء في مكان الملذات هذا أمواتاً وصدورهم مفتوحة قد انتزعت منها القلوب. ومنذ ذلك التاريخ بدأت عادة تقديم الأضاحي باجتثاث القلب وتقديمه للإله. والغذاء الوحيد الذي كان يستطيبه هويتزيلو بوشتلي الرهيب هو قلب لا يزال طازجاً قد اقتُلع لتوه من صدر عبد أوسجين.

وتابع الأزتك سيرهم الطويل حتى وصلوا إلى وادي مكسيكو وبلغوا شابولتيبيك. وتنفس المسافرون المنهكون الصعداء عندما شعروا بأنهم وصلوا إلى غايتهم، ولكن الإله المخيف ما لبث أن دمّر أحلامهم المسالمة مرة أخرى عندما قال لهم بأنهم أصبحوا حقاً قريبين من هدفهم ولكن ما زال أمامهم أن يقضوا على مقاومة الشعبين اللذين كانا قبلهم في الوادي. تلك كانت إرادته، فوجب عليهم إذن أن يقووا قلوبهم قبل أن يسلموا أنفسهم إلى الراحة الأخيرة.

وعندئذ بدأت المعركة الطويلة في الوادي، وتوالت الهزائم والانتصارات. وبينما كانوا يعيشون بسلام منذ بعض الوقت في أحدى قرى الوادي خاف هويتزيلو بوشتلي أن يستمرىء عباده العيش في هذه القرية فلا يرغبون بالخروج منها فوضع حداً لطمأنينتهم وحياتهم المسالمة تلك وأمرهم بأن يتوجهوا إلى ملك كولهواكان المجاورة ويطلبوا منه أن تدخل ابنته في خدمة إلههم. وعندما وصلت هذه البنت قام الإله بقتلها

وسلخهـا وأمـر احـد نبلاء الأزتـك بأن يرتـدي جلدهـا . وبعـد ذلـك دعي أقـربـاء الفتـاة البـائسـة لحضور الاحتفالات ، فلما عرفوا بالجريمة التي ارتـكـبت انقضـوا على الأزتـك وأرغمـوهم على الانسحـاب إلى المستنقعات المجاورة . عند ذلك أخذ الأزتك السيئو الحظ يتوسلون إلى إلههم بأن يمنحهم السـلام لأن قوتهم قد اصبحت على شفـا جرف . فاكـد لهم هويتـزيلوبوشتـلي بأن نهاية محنتهم أصبحت قريـبة وبأنهم سيصلون قريباً إلى المكان المقصود الذي كان يرغب بأن يقيموا مدينتهم فيه .

ولم ينتظروا طويلاً . فبعد زمن قصير من هذه الأحداث ظهر الإله في الحلم لواحد من الكهنة وقال له :

«يـا ولـدي . أتـذكـر اليـوم الـذي أمـرتـك فيه بقتل كوبيل ابن السـاحـرة التي ادعت بأنهـا أختي؟ . لقـد أمـرتك بأن تنتزع منه القلب وترميه بين قصب المستنقع وعوسجه . ألا فاعلم اليوم أن هذا القلب إنما وقـع على صخـرة فخـرجت منـه شجـرة من أشجـار تين الهنـد NOPAL ، وكـانت كبـيرة وجميلة حتى أن نسـراً تمت تغـذيتـه بأنـواع من الأغـذية المختـارة بنى عشـه فيهـا ولا يزال يعيش هنـاك حتى الآن ، وهـو ينشـر جنـاحيـه الجميلين الـواسعين كي يتلقى أشعة الشمـس أو طراوة نسيم الصبـاح . فاذهـب غداً وستجـده متسلقـاً شجـرة التـين ، وستجد حوله كميات من الـريش الأخضـر والأحمـر والأصفـر والأبيض هي بقـايا ما أكله من طيور . وقد أطلقت على هذا المكان اسم تينوشتيتلان» .

تينـو شتيتـلان . وانتهى السفر الطويل . وفي الصباح اتجه الجميع إلى المعبـد لتقـديم الشكـر للإلـه ، وعندما انتهت مراسـم الشكر نهض الكاهن الأكبر ليبارك الحضور وليزف إليهم نبأ المستقبل الذي ينتظرهم في هذه البلدة الكبرى :

وهنالك حيث تنبت شجرة تين الهند ينتظرنا السلام والراحة والسعادة. هنالك ستتكاثر وستزداد بنا هيبة الأزتك. وسيصبح هذا المكان شهيراً بقوة أذرعنا وشجاعتنا، وسيسمع العالم كله ما يقال عن قلبنا الشجاع الذي سنقهر به كل الأمم وكل البلاد مخضعين لقانوننا طرفي المحيط حتى أبعد المدن والمقاطعات. وسنسود كل هذه الشعوب وكل حقولهم وأبنائهم وبناتهم، وسنجبرهم على خدمتنا وأن يدفعوا الجزية لنا، ذلك لأننا سنشيد هنا مدينة عظيمة هي ملكة كل المدن، وسيأتي لزيارتها كل الملوك والأسياد ليجتمعوا، وسيتطلع إليها كل الناس كما يتطلعون إلى محكمة عليا تقضي بين الجميع».

فنحن لن ندهش إذن بعد هذه البدايات التي بدأ الأزتك بها، وبعد هذه التقاليد التي خلفوها وراءهم، أن تكون الحرب والتضحية البشرية بالنسبة لهذا الشعب وكأنها دخان بخور في عبادتهم. وإذا نحن أكدنا الأهمية الكبرى لهذين المظهرين الأساسيين من حضارتهم فإن علينا ألا نهمل ما وصلوا إليه من كمال فني في تنفيذ هذين العملين. فلقد أصبحت الحرب والتضحية البشرية لديهم طقساً ولكنهما أصبحا فناً من جهة أخرى. فكانوا يمارسونهما كفنانين مبدعين أساتذة في صنعتهم. وهكذا كثرت في احتفالاتهم المعارك الصورية. ولم يكن أحد من ملوكهم يضع على رأسه التاج إلا بعد أن يعود من حملة عسكرية يأتي منها بالأسرى الذين يمكن أن يقدموا أضاحي إلى هيتزيلو بوشتلي. فالحرب لم تكن بالنسبة لهم فناً فقط وإنما وسواس مسيطر لا يمكنّ الخلاص منه.

والأمر نفسه ينطبق على التضحية البشرية. فقد وصلت صنعة القتل الطقسي إلى كمالها، والأشكال التي كانت تتم به تكاثرت حتى لقد أصبحت تشهد على تفنن حقيقي. فهنالك أولاً التضحية العادية

حيث تمدد التضحية على حجر التضحية بينها يمسك برأسها واطرافها خمسة من الكهنة ، ثم يقوم منفذ التضحية بفتح صدرها بسكين من الحجر ويمد يده إلى داخل الجرح حيث ينتزع القلب ويجعله تقدمة إلى شفقي الإله أو يقدمه مباشرة للشمس . وفي كثير من المناسبات كانت التضحية تتم فوق قمة المعبد الهرمي الشكل ، ثم تدحرج الضحية على السلالم إلى الأسفل قبل أن يتم الاستيلاء عليها وتقطع إلى أجزاء .

والطريقة الثانية هي أن تتم التضحية بقطع الرأس . والثالثة بالسلخ ، وأخيراً بقتلها رمياً بالسهام . وفي هذه الحالة الأخيرة يربط الأسير إلى صقالة ويطلقون السهام عليه . إلا أنه يوجد أيضاً ـ إضافة إلى ذلك ـ عراك المجالدين الشهير ، وهو طقس بالغ المأساوية والشذوذ . والسيء الحظ الذي يحكم عليه بأن يموت بهذه الطريقة يربط إلى حجر دائري ولا يترك منه حراً إلا ذراعاه ، ثم يقوم بمهاجمته أربعة من المحاربين الذين يرتدون جلود نمور أمريكية ونسور ، فإذا نجح الضحية بمعجزة أن يدافع عن نفسه أضيف إلى المحاربين محارب خامس . أما أن تأخذهم بالضحية رحمة فينال العفو فإن ذلك أمر لا يمكن أن يكون .

ولا بد لهذه الطقوس من أن تنعكس أعمق انعكاس على فكر الشعب الذي كان يمارسها وعلى قلبه . ويمكننا أن نتوقع سلفاً أن مثل هذه العادات لا بد من أن تؤدي إلى كل أنواع القسوة والجنون الدموي . ومع ذلك ، فإننا إذا أخذنا الأمور بظواهرها فإن شيئاً من ذلك لم يحدث ، ذلك لأن الضحايا كانوا يتألفون في معظمهم من أسرى الحروب أو من أناس اعتبرهم مواطنوهم قمينين بعقاب ديني . فقدماء المكسيكيين ـ إذا نظرنا إلى الأمور بمنظار ما وصلنا من أوصافهم ـ كانوا يمارسون فيما بينهم علاقات مسالمة ومتسامحة على الرغم من قسوتهم في

معاملة أعدائهم. ومع ذلك فإنهم كانوا يعيشون في جو من الرعب يخفف منه أنه كان في جزء منه رعباً طقسياً. ومما لا مراء فيه أن الهول كان أبداً المسحة المسيطرة على تصاوير الآلهة وعلى الاحتفالات التي ترتبط بها. فلو أنه كان يوجد مجمع لآلهة الرعب فلا ريب في أنه سيكون مجمع آلهة الأزتك، وإليك بعض الأمثلة التي تكفي للبرهان على ذلك.

هنالك إله اسمه تيزكاتليبوكا تبدو طبيعته الحقيقية من النعوت التي يسندونها إليه. فهو: «ذلك الذي نحن عبيده» و «العدو الرهيب» و «السيد صاحب النزوات». وكانوا يضحون على شرفه شاباًيتوجب عليه أن يمثل شخصية هذا الإله طول العام الذي يسبق التضحية به. أما كيتزالكواتل، وهو أحد كبار الآلهة المهمين، فيمثل جالساً ظهراً إلى ظهر مع إله الموت كما لو أن الغاية هي التذكير بأن أكثر الآلهة مسالمة يمكن أن ينقلب فجأة إلهاً مخرباً. وكانوا يحتفلون بالتضحية على طريقة السهام التي تكلمنا عنها على شرف تلازولتيوتل آكل الأقذار، كما كانوا يمارسون من أجله طقساً ذا قسوة مبتكرة يجبرون من خلاله المرأة المحكومة بأن تمشي إلى الموت دون خوف بل بأن ترسم على وجهها مسحة من السعادة والحبور. وهنالك كسيب XIPE للشارب الليلي»، «سيدنا السالخ»، ذلك الذي يُسر من رؤية ضحاياه وهم يُسلَخون. وأخيراً هنالك ميكتلانتيكوتلي سيد الموت والعالم الأسفل. وتمثله لنا احدى المخطوطات المكسيكية الشهيرة، هي (الكوديكس بورجيا)، هيكلاً عظمياً قد طليت أطرافه بألوان مختلفة محاكاة لرجل قد تم سلخه منذ قريب. وهو يتزين بروؤس بشرية كأغطية لأذنيه. وإلى جانبه إلهة الموت وهي تقدم له جسداً بشرياً عارياً رمزاً للتضحية. وبالقرب منه يغلي قدر مليء بالدم الحار والقلوب. وفي الوسط جمجمة تبتلع رجلاً قد غاب رأسه بين فكيها.

ولننه وصفنا لهذه الديانة الرهيبة بقصة الرحلة إلى الأرض القفر التي يحكمها ميكتلانتيكوتلي وحيث لا يوجد - كما تقول نصوص كتابة أزتيكية قديمة - «لا نور ولا نوافذ» . ولم تكن هذه المحنة الرهيبة تفرض على الأزتك كلهم وإنما هي مخصصة للطبقات الفقيرة أو أولئك الذين وقعوا فريسة لبعض الأمراض . وأول العوائق التي تواجه المسافر في رحلة العذاب هذه جبلان يتصادمان ويهددان نفس المسافر بالدمار من شدة النصب . فإذا سلمت من هذا الخطر وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام ثعبان عظيم له كرش كبير وقبيح . ثم أمام تمساح ضخم مخيف . ثم يجب عليها بعد ذلك أن تجتاز سبع صحراوات وثماني هضاب . ثم تتعرض لتجربة جديدة تتمثل بريح هوجاء تحمل قطعاً حادة من حجر الصوان . وأخيراً تصل النفس إلى شواطىء نهر يسمى «المياه التسعة» ، فتجتازه على ظهر كلب أحمر لا بد له من أن يقتل بعد ذلك بأن يغرز في حلقه سهم .

ومهما كان الفاتحون الاسبانيون هواة رعب أحياناً فإنهم لم يكونوا قادرين على اختراع كل هذه الأنواع من التعذيب المبتكر التي ملات حوليات ديانة الأزتك وتاريخهم . ومما يجعل هذه القسوة أكثر رهبة أيضا هي أنها لم تكن عمل قريحة شخصية وانما كانت تستمد كل فظاعتها من تكرار آلي ذي فواصل ثابتة لدراما دينية . وقد وصلت هذه القسوة إلى ذروتها في الاحتفال الشهير الذي كان يقام على شرف تيزكاتليبوكا . ومن ذا الذي لا يعرف هذا الطقس الغريب الذي يختار فيه شاب على جانب كبير من الجمال ذو فضيلة ليس لها مثيل ليمثل الإله خلال عام كامل . وكانت تضفي على هذا الشاب كل نزوات الإله . وفي نهاية المدة المقررة كان يضحى به على يد الكهنة القساة القلوب من أجل تنفيذ هذا التقليد المخيف .

ففي كل عام كان الكهنة يستعرضون إذن بكل انتباه أوجه أجمل أسراهم ليختاروا منهم من هو أصلح من بينهم لتمثيل شخصية الإله. وكان ينبغي أن يكون سليل عائلة نبيلة وأن يكون متمتعاً بلطف وجمال غير عاديين. وكان يعهد به إلى كهنة مختصين ينبغي عليهم تثقيفه في كل الفنون النبيلة، وكان الأزتك ينتظرون منه بعد ذلك إن يجيد العزف على الناي، وأن يتقن الحديث، وان يُحَيّيَ حسب القواعد، وأن يعرف أنواع الزهور، ويتقن استعمال أنبوبة تدخين التبغ المصنوعة من القصب. وكان يُحرس في كل مكان يذهب إليه بثمانية من الغلمان يلبسون الكسوة الرسمية لخدم القصر. وكان باستطاعته أن يذهب حيث يشاء وفي اللحظة التي يشاء وأن يأكل على هواه ما شاء من المآكل النادرة، ولكن من أجل أن يمنع من أن يصبح سميناً جداً كان عليه أن يتناول الماء المالح بين فترة وأخرى.

وعند مروره كان الكل يعبدونه ويقدمون له الاحترام. أليس الصورة الحية للإله تيزكاتليبوكا؟ وهكذا كان يمضي من مكان لآخر عازفاً على نايه المصنوع من الطين ومرتدياً ألبسته الفخمة التي قدمها له الملك شخصياً. وكان الناس يتدافعون حوله ليقدموا له احترامهم ويقبلوا الأرض بين قدميه. وكانت تلك في الواقع مناسبة للتمتع برؤية جمال لا ينسى. فكان وجهه وجسده مطليين باللون الأسود، وشعوره الطويلة تسقط على طول قامته. وكان يعتمر على رأسه ويضع حول خصره طاقات من الزهور الزاهية الألوان. وكانت قلادته من الحجارة الثمينة مع مشنشلات رائعة وأقراط من الذهب ودبوس شفة صنع من أحسن أنواع الصدف. وكانت ذراعاه فوق المرفق تحاطان بأساور من الذهب، بينما القسم منهما من المرفق إلى القبضة مغطى بصفوف من الأحجار الثمينة. وكانت تثبت في قدميه أجراس صغيرة من الذهب.

وأخيراً فإن رداءه كان يصنع من أفضل ما يمكن أن يتصوره الإنسان من أنواع الأقمشة.

ذلك كان لباسه طول العام. إلا أنه كان عليه أن يرتدي قبل عشرين يوماً من العيد المشؤوم ألبسة أكثر تواضعاً ولكنها جميلة دائماً. وكانت تنتظره ملذات جديدة. فقد كانوا يزوجونه بأربع من الصبايا خصصن لهذه الغاية ويحملن أسماء أربع من الإلهات.

وكان الأسبوعان الأخيران يمران مر السحاب في عيني ذلك المحكوم. وتعين الأيام الأربعة قبل التاريخ المشؤوم لاحتفالات رقص وولائم تلتف فيها كل طبقات الشعب - باستثناء من الملك - بالرجل الإله. ويقوم الرقص كل يوم في أحياء مختلفة عن تلك التي قام بها في اليوم السابق. ولكن ساعة التنفيذ تدنو. ويُدخَل الضحية مع زوجاته الأربع إلى مركب مفتوح هو أصلاً من مراكب الملك بوجسه عام، ويقادون إلى جزيرة تقع في بحيرة مكسيكو. وعندئذ تنزع منه زوجاته الجميلات ويوضع في معبد صغير محروساً بخدمه الستة وهو يمسك بيديه عدداً من مزامير الناي هي الذكرى الوحيدة لهذه السنة التي فرضت عليه فيها السعادة والبذخ والمقام الرفيع. ويصعد ببطء درجات المعبد وهو يكسر ناياً على كل درجة من درجاته. وما أن يبلغ القمة حتى يمسك به الكهنة ويقدموه قرباناً للإله.

وعلى الرغم من غزارة الاحتفالات التي كانت تجري في أمريكا والتي كان يحس المشتركون فيها بأنهم يجسدون الآلهة فإننا لا نجد في أي مكان مثل هذه الدراما الدينية وبمثل هذا التركيز.

ومن البداهة أنه من أجل الاحتفال بهذا الطقس المنوّع والمفصّل والذي يعود في كل عام إلى التاريخ نفسه لا بد من جهاز كبير من الكهنة وخدام الدين. ومع ذلك، ومهما كانت منظمةً ديانةُ الأزتك فإنها

لم تكن على مستوى أن تقارن بديانة المايا، ليس لأن ديانة الأزتك كانت تبسيطاً لديانة المايا وإنما لأن الكاهن فيها ـ على عكس ما كان يجري لدى المايا ـ كان يلعب دوراً تابعاً لدور المحارب. ففكرة الحكومة الدينية التي سيطرت على حضارات يوكاتان وأمريكا الوسطى كانت تضعف باستمرار عند مرورها في شعوب الشمال. وكانت لا تزال قوية لدى الزابوتيك الذين كانوا يعيشون إلى الجنوب من الأزتك، أما لدى قبائل الناهواتل الذين سبقوا الأزتك إلى وادي مكسيكو فإنها أضاعت الكثير من سلطانها، واختفت تماماً إلى الشمال من الوادي باستثناء منطقة وحيدة تقع إلى الجنوب الغربي من الولايات المتحدة عند هنود البويبلو حيث كان لها بدون شك أصل متأخر.

وإذا كان التنظيم الديني لدى الأزتيك والقبائل ذات القرابة منهم والتي سبقتهم إلى مكان سكناهم لا يثير فينا اهتماماً كبيراً فإن تنظيم الدولة لديهم أقل إثارة للاهتمام.

وقد ترك لنا الفاتحون الإسبانيون ومن بينهم كورتيز أوصافاً خيالية لثروة مملكة مونتيزوما وعظمتها، ولكن معلوماتهم عن أنماط التنظيم الاجتماعي في هذه المملكة كانت غامضة، كما أن العادة القبيحة التي كانت متأصلة فيهم بأن يفسروا كل ما يرونه بالمقارنة مع الملكية المطلقة والنظام الاقطاعي اللذين كانا سائدين في بلادهم شوّه تشويهاً كبيراً حقيقة الأوضاع. ومع ذلك فاننا نعرف ما فيه الكفاية لنكوّن صورة قريبة بعض الشيء مما كانت عليه الحال في تلك المملكة.

كان مجتمع الأزتك ـ وهذا أمر طبيعي بعد أن عرفنا ماضيهم وتحركاتهم ـ يمثل نوعاً من التنسيق بين المؤسسات الديمقراطية التي أتى بها الأزتك معهم من موطنهم الأصلي وبين الحضارات الأرستقراطية التي احتكوا بها في وادي مكسيكو. ولم يكن هذا التنسيق موفقاً دائماً بل

سبب الكثير من التناقضات والتعارضات التي كانت تسبب دائماً كثيراً من العنت للمؤرخين . وكان الميل إلى الحكم المطلق وإلى النظام الارستقراطي من الوضوح لدرجة أن الكثيرين من الاسبانيين وصفوا لنا مونتيزوما على أنه ملك حقيقي . وعندما كان أحد الرجال يتوجه بالكلام إلى أحد النبلاء كان ينبغي عليه أن يستعمل صيغة خاصة تدل على الاحترام بينما كانت هذه الصيغة في الماضي دليل مودة ومحبة . ويتضح ذلك أيضاً في التغييرات التي طرأت على ملكية الأرض وفي السلطة التي منحت لأحد زعماء القبيلة . وبعبارة أخرى فإن ما كان في الماضي نظاماً زراعياً بسيطاً تعدل حتى أصبح بتطبيق عدد من التدابير إلى نظام يربط العامل بالأرض اكثر فأكثر ويحد من حرية عمله ومن حقه في ملكية محاصيله . وما كان في الماضي لا يخرج عن كونه تعبير احترام لزعيم القبيلة العسكري تطور تدريجياً حتى جعل من هذا الزعيم ملكاً أو يكاد .

في هذا الوضع الجديد للأمور لا بد أن الأزتك استعاروا بعض العناصر من الشعوب التي اتصلوا بها ، ولكن الكثير من هذه العناصر لا بد من عزوها بطبيعة الحال إلى تعديلات أتت من داخل النظام الاجتماعي بمقدار ما كان الأزتك يحتلون مكانهم تحت الشمس وبمقدار ما كانت تزداد أطماعهم الاستعمارية ويزداد عدد المدن التي يحتلونها .

على رأس الدولة إذن كان الملك . وإذا أردنا الدقة أكثر فإنه كان يسمى «زعيم الرجال» . وكان ينبغي أن يكون رصيناً متحفظاً عاقلاً بشوشاً وفصيحاً . وبالإضافة إلى هذه الفضائل المسالمة كانوا يتطلبون منه شجاعة لا تقهر وكثيراً من الأناة . وكان يتزيا بزي خاص : ففي المدينة كان يضع شعوراً معقودة خلف رأسه ، بينما يرتفع فوق رأسه

باقة من الريش الأخضر. وفي ساحة المعركة كان يرتدي ضفيرة من الريش تنزل من قذاله حتى أسفل قامته، وهي زينة من السهل أن نقارنها بما يلبسه محاربو داكوتا الحاليون، كما أننا نعرف الأصل الذي انحدرت منه، فقد انحدرت، كما هو الحال في كثير من العناصر الثقافية الرئيسية، من بلاد المايا، ذلك لأن نقوش الباليتك هناك تظهر لنا أناساً يرتدون زينة تكاد تكون مطابقة لما كان يرتديه ملك الأزتك أو ما يرتديه محاربو داكوتا حتى اليوم.

أما سلطة الملك وكذلك حقوقه في حياة رعاياه فكانت مقيدة نسبياً، ولكنها تكاد تكون مطلقة على الشعوب الخاضعة وعلى الموظفين الذين يعينهم الأزتك لسياسة هذه الشعوب. وكانت السلطة الملكية كبيرة في المجال العسكري. ولكنها تصبح بلا حدود عندما تتعلق بالحياة الشخصية للأمير، أو على الأقل كان الأمر كذلك في عهد مونتيزوما الثاني، ففي عهد «زعيم الرجال» هذا كان القصر يمثل مشهد بلاط للملكية مطلقة حقيقية مما كان معروفاً في أوروبا يومذاك.

وليس من شيء يعطينا صورة أفضل عن الجو الذي كان يحيط بملك الأزتك في ذلك الوقت من خطابين وصلا لنا، في أولهما يقدم أحد جيران الملك ومحالفيه من الزعماء تهنئة له لاعتلائه العرش، وأما الثاني فقد ألقاه الملك بنفسه لإصلاح بعض التغييرات التي طرأت على حياة البلاط. وعلى الرغم من أن تركيب الجمل أو تركيب بعضها في كلا الخطابين تركيب إسباني فمما لا شك فيه أن الخطابين نفسيهما كانا أصيلين.

ولنثبت في بادىء الأمر وبحرفيته الخطاب الذي ألقاه ملك تيزكوكو عندما وصل مونتيزوما إلى العرش:

«لقد سعد شعب هذه المملكة سعادة بالغة عندما تلقاك زعيماً له

أيها الفتى المشهور! لقد تصرفنا بكل حكمة عندما انتقيناك مباشرة وعندما أظهرنا فرحنا بعد انتخابك . ولا يداخلنك شك في صدق أقوالنا . إن الامبراطورية المكسيكية الآن واسعة لدرجة أنه من أجل حكم هذا العالم الواسع ، ومن أجل أن تحمل على كتفيك هذا العبء الثقيل ، لا بد لك من صلابتك ومن قوة قلبك الشجاع ، ومن هدوئك وعلمك وأناتك . ولذلك أؤكد أن الله العلي القدير يحب هذه المدينة لأنه أنار لنا أفئدتنا في اختيار الرجل الذي كانت المملكة في حاجة إليه . إذ من منا لا يقتنع بأن سيداً وأميراً تمكن أن يفهم - قبل أن يصبح ملكاً - أكاذيب السماء التسع ، لن يظهر بعد أن يصبح ملكاً تفهماً واضحاً لقضايا الأرض من أجل مصلحة شعبه؟ . من لا يستطيع أن يتصور أن المثابرة التي أظهرتها في معالجة القضايا الهامة قبل أن تتحمل أعباء مسؤولياتك يمكن أن تتخلى عنك أبداً؟ . من يشك حتى ولو للحظة واحدة أنك ارتكبت خطأ في حق أرملة أو يتيم؟ . وأخيراً منذا الذي لا يقتنع بأن الامبراطورية المكسيكية إنما وصلت إلى ذروة مجدها لأن الإله القدير سعى لأن يكشف بين يديك مثل هذه المقدرة ولأن أي إنسان بمجرد أن يلقي نظرة واحدة إليك يمكنه أن يفهم أنك إنما تعكس مجد الإمبراطورية وعظمتها؟

فتمتعي إذن أيتها البلاد السعيدة بأن سيد الخليقة أعطاكِ أميراً تعتمدين عليه في كل مشاريعك ، أعطاك أباً وأخاً من حيث التقوى ومن حيث الحنان . تمتعي إذن ، ولك الحق في أن تتمتعي ، بأنك تملكين ملكاً لا يضيع وقته على حساب الدولة بالتمرغ على سرير النقائص والملذات ، ولكنه من أجل أن ينام مرتاح الضمير يحافظ على تفكيره صافياً ويبقى متيقظاً طوال الليل وهو يقلب النظر في أفضل وسيلة عن طريقها يستطيع أن يقدم لك الخدمات . ملك لا يكاد يتذوق طعم

المآكل اللذيذة لأن مشاغله في تحقيق مصلحة شعبه تستغرق منه كل الوقت. فتذكري إذن أيتها المملكة السعيدة أن لدي من الأسباب القوية ما يجعلني أعتبرك سعيدة وتنفسي الصعداء. وأنت أيها الشاب الكريم والسيد القدير، بما أن خالق كل شيء عهد إليك بهذه المهمة فإن عليك أن تتشجع وألا ترفض ما منحك إياه من احسان، ولتكن قادراً على المحافظة على هذه النعم سنين طويلة من السعادة والهناءة».

أما الخطاب الثاني فيقدم لنا لمحة ممتازة عن عقلية واحد من نبلاء الأزتك. والفصاحة المزخرفة التي تبدو فيه إنما هي من خصائص كل خطاب يلقيه أي خطيب من الأزتك. وقد وجه مونتيزوما هذا الخطاب إلى شيخ من شيوخ البلاط بالعبارات التالية:

«لا شك أن تعرف يا أبي أنني قررت أن على كل من يخدمني أن يكون فارساً أو ابناً لأمير أو سيد. ولا يندرج ذلك فقط على أولئك الذين يخدمونني في بيتي وإنما أيضاً على كل من يشغل في المملكة مركزاً هاماً. ويضطرب قلبي عندما أفكر بأن الملوك الذين سبقوني كانوا يتحملون أن يقوم على خدمتهم أناس ذوو مولد وضيع. فدعني إذن أسوغ أمام عينيك وجهة نظري.

أنت لا تجهل إلى أي مدى تختلف حياة النبلاء عن حياة العامة من الناس. فإذا استخدم الرؤوساء، وبخاصة الملوك، هؤلاء الأخيرين فإنهم سيجلبون على أنفسهم الكثير من المتاعب. والواقع أنه إذا قام الملك فألحق بالسفراء حارساً من العامة فإن هذا الشخص ذا النسب الوضيع سيكون مثار دهشة بكلامه العامي بينما يتوقع الفارس أن يوجه إليه الحديث بطريقة منمقة متروية. وعند ذلك سيقول كل الناس بأننا لا نعرف أن نقدّر أصحاب النسب الرفيع. ولنتذكر من جهة أخرى أن هؤلاء الريفيين مهما كانت ثقافتهم يحتفظون دائماً على

أجسادهم برائحة الريف. وأخيراً فإنه ليس من العدل ولا من اللياقة ان ينتقل كلام الملوك والأمراء، أولئك الذين يمتلكون الكثير من المجوهرات والأحجار الكريمة، عن طريق أفواه رجال حقيرين من ذوي النسب الوضيع. فذلك الكلام ينبغي أن تلتقطه دائماً آذان جديرة به كآذان الأسياد والأمراء. إن هؤلاء الناس الشعبيين لا يمكنهم إلا أن يجلبوا الكراهية علينا، ذلك لأننا إذا كلفناهم بمهمات تتطلب عقلاً نبيلاً ومثقفاً فإنهم بعاميتهم ونقص ثقافتهم سيثلمون هيبتنا. ولذلك فإنني آمرك بإعفائهم من وظائفهم مهما كان أمرها، أن تعفي كل أولئك الذين ينتمون إلى نسب وضيع، وابدأ بأن تطرد كل من سيأتيك في المستقبل من الريف».

وبعد، فما فائدة أن نناقش سلطة رئيس الأزتك كي نعرف ما إذا كانت ملكية أو غير ملكية؟. لقد كان الرئيس محاطاً بكل الجلال الملكي، وكان يلعب في الدولة دوراً مزدوجاً: فهو أولاً يمثل رمزاً لوحدة شُريت بثمن غال، كما أنه كان ثانياً القائد الأعلى للجيش. وهذا الشكل المزدوج لوظائفه كان يحافظ عليه دائماً وهو الذي كان يمنع الملكية المكسيكية من الانجراف إلى الحكم المطلق، ذلك لأن امبراطوريته إنما كانت ترمز في خيال الشعب إلى وحدة الأزتك وإلى قوة الأزتك وإلى النزعة الاستعمارية للأزتك، وكل ذلك كان يرتبط بدوره بنجاحاته العسكرية. وعلى غرار الأسير النبيل الذي تجسد فيه الإله تيزكاتليبوكا كما رأينا فإن الملك كان ينبغي عليه أن يبقى نقياً من كل عيب تحت طائلة أن يصبح هو نفسه ضحية للآلهة وأن يتعرض للخلع عن العرش. وذلك ما كان مصير آخر الملوك الذي انتصر عليه الإسبانيون، فقد انقلب عليه شعبه حتى لقد وُجد من ادعى بأنه إنما قُتل بسهم من سهام الأزتك.

بعد «رئيس الرجال» كان يأتي في المقام موظف كبير يحمل اسماً غريباً هو الثعبان ـ الأنثى. وعلى عكس مهمة «رئيس الرجال» فإن مهمة الثعبان ـ الأنثى كانت ترمز إلى السلم. فعندما كان الملك يذهب إلى الحرب كان على هذا الموظف الكبير أن يبقى في المدينة. وتشير كل المعطيات التي بين أيدينا على أن الثعبان ـ الأنثى كان فيما مضى أكثر اهمية من «رئيس الرجال»، الأمر الذي يشكل وضعاً أكثر انسجاماً مع نموذج الحكومة الطبيعي لدى الهنود حيث يقوم الرئيس المدني بحكم القبيلة بينما لم يكن للرئيس العسكري بينهم إلا دور ثانوي، ولم يكن هذا التوزيع الأولي للوظائف قد عدل لدى المايا في غواتيمالا ولا لدى السيو أو الأوجيبوا في ويسكونسن ومينسوتا عند الفتح. وكان الأزتك وحدهم من كسروا هذا التقليد القديم الجليل الذي لم يستطع أن يقاوم هالة المجد التي وضعتها الانتصارات العسكرية فوق هامة جيش الأزتك في عيون الشعب.

وكانت مدينة مكسيكو منقسمة إلى أربعة أحياء وإلى عشرين زمرة محددة تحديداً واضحاً وربما كانت تمثل ما كان في الماضي قبائل مختلفة. وكان لكل واحد من هذه الأحياء رئيس عسكري يحمل لقباً خاصاً له مغزاه من أمثال «رجل بيت السهام» و «قاطع الرجال» و «مسيل الدماء» و«رئيس النسر». ويبدو أن هؤلاء الموظفين الكبار كلهم كانوا ملحقين عسكريين يستخدمون في نقل أوامر الرئيسين الكبيرين. وكان الثلاثة الأولون بينهم يتمتعون بأهمية خاصة من واقع أنهم ربما كانوا مهيئين في المستقبل لاحتلال مركز «رئيس الرجال» أي الملك.

ومن بين الموظفين الكثر كان الرئيسيون هم زعماء «القبائل» العشرين والخطباء وجامع الضرائب التي كان يجب أن تدفعها المدن المغلوبة، وكان يسمى «جامع المحاصيل». و«الخطباء» هم أكثرهم لفتاً

للانتباه، ليس فقط بسبب وظائفهم وإنما لأننا نجدهم كثيراً إلى الشمال من ريوغراند. وكان يعهد إليهم أن ينقلوا إلى مجلس القبيلة تعليمات كانت تتطلب منهم إلقاء خطب طويلة، كما كان على غيرهم من الخطباء أن يعطوا رد القبيلة على هذه التعليمات. وهكذا نستطيع أن نعتبرهم محامين رسميين عن كلا الطرفين في كل دعوى. وهذه الوظائف نفسها وجدت حتى بين هنود ميتشيغان الشمالية، وهي تمثل بطبيعة الحال احدى الروابط الكثيرة التي توحد بين طلائع الحضارة التي تشمل فيما تشمل قبيلة الأوجيبوا ذات الزراعات الواسعة في الجنوب.

وكان مجتمع الأزتك ينقسم إلى ثلاث طبقات: النبلاء والشعب والعبيد. وكانت الطبقتان الأوليان تنقسمان بدورهما أيضاً. فبين النبلاء ينبغي أن نميز بعناية بين أعضاء عائلة الملك الكبرى وبين حاشيته المباشرة ثم أحفاد الأشخاص الذين نالوا مكانتهم في الحروب أو الذين كانوا يحتلون بعض المناصب في امبراطورية الأزتك الواسعة. وكان النبلاء يتميزون من حيث مظهرهم الخارجي عن العامة بأرديتهم وبشاراتهم العسكرية التي يتزينون بها.

وينقسم العامة فيما بينهم أيضاً إلى عدد من الزمر المتمايزة. فأولاً هنالك المزارعون، ثم الحرفيون، وبعد ذلك التجار. ويبدو أن الحرفيين كانوا منتظمين في طوائف محددة تماماً، ولهم مركز عبادة مشترك ويحافظون على عدد من القواعد المتعلقة بالتدريب. وكان الصاغة يحتلون بطبيعة الحال مكانة أعلى من الآخرين، ويأتي بعدهم الخزافون وعمال الريش وعمال الفسيفساء الزرقاء والنساجون والصباغون.

وعلى الرغم من تنظيمها العالي فإن طائفة الصاغة ما لبثت أن انمحت أمام طائفة التجار التي كان يطلق عليها اسمان لهما مغزى: «الرجال الذين يبادلون شيئاً بشيء آخر» و«الرجال الذين يأخذون اكثر

مما يمطـون». والسبب في الـدور الهام الـذي كان يلعبه التجـار تفسره بعض الضـرورات التجـارية. فعنـدمـا كانوا يذهبون في أسفار طويلة لزيارة أسواق القبائل الأخرى ومبادلة منتجات بلادهم بمنتجات البلاد الأخرى كان لا بد لهم من أن ينتظمـوا في جماعـات. كما كان لا بد لهم من أن يكونوا مسلحين وأن يلجؤ وا إلى الدبلوماسية في معظم الأحيان. وعـدا عن ذلـك فقـد كانوا بحاجة إلى حمالين لبضائعهم وإلى عدد من المحاربـين الخصـوصيين لحمايتهم. فالمشروع التجاري كان إذن كما لا يزال أمره في العصـر الحاضر حملة عسكرية. وكان التجار يجلبون معهم في عودتهم ليس فقط منتجات الأمم الأجنبية وانما أيضاً معلومات ذات طبيعـة متنوعة ومؤثرة، مثال ذلك مدى قوة البلاد التي زاروها، وخير طريقـة لمهـاجمتهـا، وفي النهـاية كل ما كان بامكانه أن يخدم شره النزعة الاستعمارية التي كانت تسود في بلادهم.

وكـانت طائفـة التجـار نفسهـا تنقسم إلى طبقـات. فهنـالـك الأمراء ـ التجار الذين كانوا يعيشون في الأحياء الأرستقراطية من المدينة والذين كانت طبقتهم تعادل من كل الوجوه طبقة النبلاء. وكان هؤلاء الأخير ون ينظـرون بعـين الحسـد لسمـو مكانتهم فتنجم بسبب ذلك المنـازعـات الدائمة بين الطرفين. ومن بعدهـم تأتي طبقة تجار العبيد ثم التجـار العـاديـون الـذين كانـوا يتنكـرون تحت هذه الصفـة فتحميهم ويزورون بلاد الأعداء ليكونوا جواسيس حقيقيين لبلادهم.

أمـا العبيد فكانوا يحتلون أسفل السـلم الاجتماعي. وحتى بينهم كانت توجـد درجـات مختلفـة آخـرهـا كانت درجـة أسـرى الحـروب الأشقيـاء، ثم تأتي فوقهـا درجـة المجرمين، ثـم درجة الذين بيعوا عبيداً على يد آبـائهـم، وكان هؤلاء الأخير ون يستطيعون في بعض الظروف أن يشتر وا حريتهم بينما كان الآخرون محرومين منها على الدوام.

ولم يكن بإمكـان أيـة حضارة بمثل هذا التعقيد أن تتماسك بدون طريقـة محددة ومنهجيـة للتر بيـة . ومن حسن الحـظ أننـا نملك تدوينـاً هير وغليفيـاً لكـل مراحـل التعليم يدلنـا بدقة على السن التي كان فيها الأولاد ينتقلون بين مراحل التر بية المختلفة بل وحتى كمية الطعام التي كانت تخصص لهم . في سن الثالثة مثلاً كانوا يتناولون في الوقعة الواحدة نصف قطعة صغيرة من الخبز فحسب . وما ان يبلغوا الرابعة أو الخامسة حتـى يحملوهـم على بذل جهـود جسـديـة قليلة الارهـاق كأن يحملوا أحمـالاً خفيفـة في الوقت الذي تتعلم فيه الفتيات الاعتياد على المغزل . ويتألف مخصصهـم الغـذائي عنـد ذلـك من قطعـة صغـيرة كاملة من الخبز . وما بين السادسة والسابعة يرافق الصبي أباه إلى السوق بينما تبدأ البنت في الغـزل ، ويتنـاولـون قطعـة صغيرة ونصف قطعة من الخبز ولا تعـدل هذه الجـراية حتى بلوغ الثـالثـة عشـرة من العمر . وما بين سن الثـالثـة عشـرة والخـامسـة عشـرة يعمل الصبية الشباب في البحث عن الحطب من الجبـال وجلبـه إما عن طريق البر أو باستعمال المراكب أو أن يكلفوا بصيد الأسماك . وفي هذه السـن كانت الفتيات يطحنّ الذرة ويهيئن الطعـام وينسجن . وأخـيراً في سن الخـامسـة عشـرة يمكن للشبـاب أن يختاروا بين أن يضعوا أنفسهم بين أيدي كهنة يقدمون لهم تربية دينية أو أن يضعوا أنفسهم تحت وصاية معلم يشرف على تدريبهم العسكري .

وكـان يوجـد نوعـان من المـدارس ، مدارس النبـلاء ومـدارس الشعب . وكـان التـلاميـذ كلهم يرتـدون اللبـاس الأسـود ويـتركـون شعورهم طويلة . وكانوا يوكلون إلى إشراف كهنة خصوصيين ، وكانت الغـايـة الأسـاسيـة من الـتر بيـة هي تعليم الأطفال الفروع التي تتعلق بمستقبلهم المهني مع إعطـائهم معلومـات عن الدين والأخلاق وحسن السلوك . وكـان النبـلاء والشعبيـون من التـلاميذ يختلفون بعضهم عن

بعض بأن هؤلاء الأخيرين لا يقومون إلا بالأعمال الثانوية من تكنيس للمعبد والمحافظة على نار المباخر والبحث عن الحطب وغير ذلك . أما التلاميذ النبلاء فكانوا يدرسون إضافة إلى الأعمال السابقة الأدب (الذي كان يتألف أساساً من الأغاني البطولية والتراتيل المقدسة) والتقويم والكتابة وتفسير الكتابات الهيروغليفية وغير ذلك .

أما تعليم الفتيات فكان يقتصر على اهتمامات منزلية متخصصة كالعناية بالمعابد والغزل وإنجاز أعمال من الريش ونسج الأغطية وغيرها . وكانوا يعلمونهن بوجه خاص كيف يظهرن الخضوع في حضرة كبار السن وكيف يكلمنهم باحترام وكيف يحرصن في كل وقت على التمسك بالتواضع .

وكان الصبية والفتيات يترددون على المدرسة حتى الزواج . وهذه الظاهرة مضافاً إليها تفصيلات أخرى في تعليمهم تسمح لنا بأن نؤكد أن هذه المدارس تشابه في بعض وظائفها «أكواخ المراهقة» التي نصادفها كثيراً في أمريكا الشمالية . وبعبارة أخرى إن لنا كل الحق بأن نعتقد أن اكواخ المراهقة عند هنود الولايات المتحدة وكندا إنما تمثل أواخر آثار النظام المدرسي عند الأزتك . ونحن لا نجهل أن مدارس الأزتك إنما اشتُقت من مدارس أكثر منها تعقيداً هي تلك التي كانت لدى المايا .

ولكن فلنتوقف قليلاً وننظر ماذا كان يقوم أب من الأزتك بتعليم أبنائه . والقطعة التالية تقدم لنا موجزاً عن كل ما كان يعتبر نبيلاً وسامياً في أعين الهنود الأمريكيين الذين كانوا ينتمون إلى حضارات الأزتك والمايا والقبائل البدائية في كندا الشمالية :

«أعيروني أذنكم وأصغوا إلي يا أبنائي لأنني أبوكم ، ولقد اختارتني الآلهة على الرغم من عدم جدارتي لأدير هذه العائلة . فأنت يا أول من ولد من أبنائي ، وأنت أيها الثاني ، وأنت أيها الثالث ، وأخيراً

انت أيها الأخير ، اعلموا أن قلبي مفعم بالقلق من فكرة أن بعضكم لن يتمكن من أن يظهر جدارته في الحياة وأن يبدو غير جدير من بعدي بأن يحمل أعبائي وأمجادي . وربما كان بإرادة من الآلهة أن البيت الذي بذلت في بنائه كل جهدي سينهار ولا يبقى منه إلا كومة من أنقاض ، وأن اسمي سيختفي من ذاكرة الرجال ، وألا يتحدث عني أحد بعد موتي .
فاسمعوا إذن ما سأتلفظ به الآن من كلمات لكي تتعلموا كيف تصبحون مفيدين ولكي تجعلكم الآلهة صالحين . وها أنذا أقول لكم الحق : إن أولئك الذين يبكون ويحزنون ، أولئك الذين يحرصون على أن يسود النظام والنظافة في المعابد ، هؤلاء هم الذين يعطيهم الآلهة المجد والسمعة الطيبة والغنى والرخاء كما يعطون ذلك أيضاً لأولئك الذين يحرزون النصر في المعارك .

وهؤلاء هم الذين يعترف الآلهة بأنهم أصدقاؤهم ويمنحونهم المراكز العليا والمناصب العسكرية والنصر في ميدان القتال ومكانة مرموقة في المحاكم ، كما يجعلونهم أصهاراً للشمس لكي يقدموا الطعام والشراب ليس فقط لآلهة السماء وإنما لآلهة الجحيم أيضا . والذين يصبحون موضوع هذه التشريفات يكرمهم الأبطال والمحاربون ويعتبرهم كل الرجال آباء لهم لأن الآلهة هي التي أعطتهم مكرماتهم وجعلتهم أهلاً لاحتلال مكاناتهم العليا وأن يحكموا بين الناس بالعدل . وقد وُضعوا بالقرب من إله النار أبي الآلهة كلهم ، ذلك الإله الذي يحيط بمسكنه المائي أبراج وأسوار من الأزهار ويسمى أيا ميكتلان كسيوهتيكوتلي ، أو يسندون إليهم مكانة أدنى ، وقد يحدث أن يسندوا إليهم مهمة كالتي أسندت إلي ليس بفضل جدارتي الشخصية ولكن لأن الآلهة لا يعرفون عدم جدارتي بها ، وأنا لم أصبح ما أنا عليه بفضل ما قمت به من مساع شخصية ، فأنا لم أقل قط «أريد أن أكون كذا أو

ارغب في مركز كذا»، فالآلهة برغبتهم المحضة أسندوا إلي هذا الشرف، ذلك لأن كل شيء يعود إليهم وكل نعمة إنما تأتي من أياديهم. فلا ينبغي لإنسان أن يقول «أرغب بهذا الشرف أو ذاك» لأن الآلهة تعطي بمحض رغبتها ولمن ترغب بأن تعطيه وهي لا تحتاج لأية نصيحة من أحد.

وثمة ألم آخر ينتابني يا أبنائي عندما أقوم في منتصف الليل أصلي وأعبر عن ندمي وتوبتي، وعند ذلك أتأمل في كثير من المواضيع ويخفق قلبي بضربات قوية كالضربات التي يحفرون بها الجبال لأنني لست راضياً عن أي واحد منكم. فأنت يا ابني البكر لا تبدو عليك أية بادرة من بوادر التبدل، فلا يبدو أنك ستصبح رجلاً بل ستبقى ولداً على الدوام. أنت لا تتصرف كما ينبغي أن يتصرف الولد البكر. وأنتما يا ولديّ الثاني والثالث لا تبديان أي تعقل ولا أي حزم. فهل مرد ذلك أنكما تهملان نفسيكما لأنكما الثاني والثالث من أبنائي؟. فما مصيركما في الحياة؟، ألستما من سلالة آباء نبلاء ولستما ولدي فلاحين وحطابين؟

وها أنذا أكرر مرة أخرى، ما الذي سيحل بكم؟. أليس لكم أطماع أخرى غير أن تصبحوا بائعين تسافرون والعصا في ايديكم والأحمال على ظهوركم؟. أتريدون أن تكونوا فلاحين تعملون في الأرض بأيديكم؟. أصغوا إلي يا أبنائي وزنوا كلامي فأنا أريد أن أدلكم على الطريق القويم. تعلموا الرقص والموسيقى والغناء فتمتعوا بذلك الشعب والآلهة في الوقت نفسه، ذلك لأن الوصول إلى السعادة والثروة إنما يتم عن طريق الموسيقى والغناء. واحملوا أنفسكم على تعلم مهنة شريفة، كأشغال الريش والمعادن الثمينة مثلاً فتحصلوا بذلك على طعامكم في أيام الحاجة والاضطرار. ولا تهملوا أي فرع من فروع الزراعة لأن الأرض لا تتطلب لا غذاء ولا شراباً وإنما تريد فقط أن

تعطي . ولم يكن أجـدادكم ينـسـون هذه الأمـور، وعلى الرغم من أنهم كانوا نبلاء فإنهم كانوا يسهرون على أن تكون أرضهم حسنة الاستثمار. فإذا كنتم لا تفكـرون إلا بطبقتكم العـاليـة وتنـسـون هذه الأمور فكيف يمكنكم أن تطعمـــوا عائلتكم؟ فليس من مكـــان في العـالم يعيش فيـه الإنسان من نبالته وحدها.

قبل كل شيء اجتهدوا في أن تؤمنوا ما هو ضروري للجسم فهنا أسـاس كيانكم، هنـا لحمكم وعظمكم، هنـا ما يعطينـا الحياة والقوة والقدرة على العمل. وليس من انسان في العالم يستغني عن الطعام لأننا كلنا نملك معدة وأحشاء. إن أكبر الأمراء يحتاج إلى الغذاء، والمحارب الأكثر مهابة يحمل معه كيساً يضع فيه ما يحتاجه من مؤن. فعن طريق صيانة الجسـد تستمـر الحياة ويعمر العالم. فلا تهملوا إذن يا أبنائي أن تزرعـوا الـذرة والمـاغـوي التي تسـر ثمارهـا الأطفـال وتنعشهم وتـروي عطشهم. وأنتم أنفسكم أيهـا الشبـاب الا تحبـون هذه الثمار؟. فكيف تحصلون عليها إن لم تزرعوها وتسهروا على نمائها؟.

والآن يا أبنـائي يجب أن تكـونوا متنبهين لمغزى مقالتي واحفظوها في قلوبكم. وإن لدي لأشيـاء أخـرى أريـد أن أقـولهـا لكم ولكنني لن أتمكن من قولهـــا كلهـا. لذلـك سأكتفي ببعض كلمات أرددهـا عليكم جاءتني من أجـدادنـا. فأولاً أدعـوكم لأن تكونوا مطيعين للآلهة التي لا تُرى وليست من المـادة، وأن تكـرسـوا أنفسكم لها روحـاً وجسـداً، واحذروا من أن يملأكم الغرور ومن أن تكـونـوا عنيـدين أو ضعفـاء أو مترددين وإنمـا كونـوا لطفـاء متـواضعين وضعوا ثقتكم في الآلهة لكي لا يبلوكم بتجـربـة لأنـه ما من شيء يخفى على أعينهم وهم يعـاقبون من يشاؤون. وثـانيـاً يا أبنـائي يجب أن تبذلوا جهدكم لتعيشوا بسلام مع جيرانكم وعـاملوهم باحـترام. وإذا تكلم عنكم أحد بسوء فلا تجيبوه،

وكونـوا لطفـاء مع الجميـع دون أن تصلوا إلى رفع الكلفة والمزاح . ولا تستغيبوا أحداً ، وكونوا صبورين ، وردوا الشر بالخير ، وستكافئكم الآلهة على ما تحملتم من آلام . وأخيراً يا أبنائي لا تبذروا أموالكم ولا وقتكم لأن كلا الاثنـين ثمـين . وصلوا إلى الآلهـة في كل وقت واستلهموهم وثابروا على ما هو مفيد .

لقد قلت لكم ما يكفي وأتممت واجبي . ولربما نسيتم كلماتي أو لم تعيروهـا أي اهتمام فهذا شأنكم . أما أنا فقد قمت بما توجب علي ، وليصغ من أراد أن يتبع سبيل الرشاد» .

* *

أمـا في ميدان الفن فإنك الأزتك لم يكونوا فنانين كباراً . وماوجد من أشيـاء فنيـة في وادي مكسيكو وسبب لهم هذا الفخار الذي أسند إليهم كان من صنع من سبقوهم من سكان هذا الوادي . وحتى ما بدا للوهلة الأولى أزتكياً محضـاً كفخـار المـدن المجاورة لمكسيكو لم يكن كذلك في حقيقـة الأمـر . وقـد وجـد هذا الفخـار CERAMIQUE في شولـولا على الأخص ، وهي مدينة مقدسة قديمة تتالت فيها تقاليد التولتيك الفنية . ولكن على الـرغم من أن الأزتـك لم يكـونـوا موهوبين في الأصالة ولا في الـروح الفنيـة اللماحـة فقـد كانـوا مهـرة بما فيـه الكفاية ليحافظوا على التقـاليـد القديمة في فن النحت وفن العمارة بينما وصلوا في فروع أخرى كصنـاعـة المـوزاييك إلى مستوى من الاتقان منقطع النظير . وفي قوائم جرد الغنـائم التي نظمهـا الاسبـانـويين ذُكـرت أشيـاء منهـا ما خلفتهـا الحضـارات الكـبر ى السـابقـة للأزتـك ومنهـا ما كان لا يزال يصنع في

البلاد عند الفتح . وإليك مثلاً قائمة غير كاملة عن أشياء أرسلت إلى شارل الخامس :

١ ـ سبيكة ذهبية تزن واحداً وعشرين كنتالاً ونصف الكنتال عندما نقلوها إلى المصهر.

٢ ـ مرآة دائرية كالشمس وأخرى تحمل رأس أسد وكلها من الذهب.

٣ ـ عقد كبير يشبه طوقاً من الذهب.

٤ ـ نايان من الذهب.

٥ ـ ثلاث وردات من الذهب شبيهات بثمرة الخرشوف، وردة ذهبية ذات ستة تويجات وست لآلىء ذهبية.

٧ ـ قطعة من (الشالشيهوتيل) مرصعة بالذهب وفي داخلها شجرة صغيرة[1].

٨ ـ سلحفاة من الذهب مرصعة بالشالشيهوتيل.

٩ ـ ترس من الذهب مع راية وثلاثة سيقان أشجار مثبتة على وجهها الخلفي.

١٠ ـ رأس من ذهب ووجهه من المرمر (السربنتين)، ورأس من الحجر الأخضر مرصع بالذهب مع أذنين على هيأة ثعبانين، ورأس من المرمر مرصع بالذهب مع ريشات ذهبية تتدلى من الأمام.

١ ـ وجه ميت من الذهب.

١٢ ـ رأس من المرمر مرصع بالذهب مع أزهار ذهبية. ستة رؤوس لوحوش يختلف بعضها عن بضع وكلها من الذهب.

---

١ ـ هكذا جاء العد ناقصاً في الأصل. ـ المترجم ـ.

١٣ ـ تحفة ذهبية ذات خمسة قلوب وإطار من المرمر، وتحفة أخرى مستطيلة مرصعة بالذهب.

١٤ ـ خمس فراشات ثلاث منها من الذهب والحجر الكريم.

١٥ ـ ثمانية مغازل مع غزولها وزهرة تستند على زهرة أخرى وكلها من الذهب.

١٦ ـ تسع ملاعق من الذهب.

١٧ ـ ثلاثة نمور من الذهب.

١٨ ـ ست حلقات[٢] من الذهب، وحلقات من العنبر مزينة بالذهب.

١٩ ـ حرذون من الذهب مع سلسلة ذهبية صغيرة.

وفي قائمة أخرى نجد الأشياء التالي:

١ ـ ترس كبير مع أقمار من الحجر، فسيفساء (موزاييك) وكثير من الذهب.

٢ ـ ترس يمثل رجلاً من ذهب وقد فتح صدره للتضحية، وسيل من الدم ينبثق من الجروح. ويضع قواقع من الفضة.

٣ ـ قبعة من الذهب.

٤ ـ نسر من الذهب.

وحتى الآن لم نعرف الأزتك من حيث الثقافة إلا مقلدين ووسطاء. ولم يظهروا إلا في ميدان واحد عظماء وأصيلين، وهذا الميدان هو أنهم كانوا مستعمرين ومنشئي امبراطورية، والعبقرية التي كشفوا عنها في هذا المنحى ليس لها ما يوازيها في تاريخ أمريكا الجنوبية الوطنية،

---

٢ ـ LABRET ترجمتها حلقة أو خطام تغرز في الشفة من الجمل أو من بعض الشعوب البدائية. ـ المترجم ـ.

فبعد أن وضعوا أقدامهم في مستنقعات مكسيكو المجدبة ما لبثت المدن أن سقطت أمام هجماتهم واحدة بعد أخرى، وعند وصول الإسبانيين كانوا قد انتصروا على عدة ممالك، وكانت مملكتهم تمتد ما بين وادي مكسيكو حتى برزخ تيهوانتيبيك ومن المحيط إلى المحيط. وبعد أن بدؤوا تابعين لأحد الزعماء المجاورين أصبحوا المستبدين القساة الذين لا يقهرون وصاروا يفرضون الإتاوات من كل نوع وفي كل مكان.

وكانت المدن الواقعة على ساحل المحيط الهادي ترسل على سبيل المثال ضرائب من الثياب القطنية وأربعة آلاف حزمة من أحسن الريش وأنعمه ومائتي كيس من الكاكاو وأربعين من جلود النمور ومائة وستين طائراً من مختلف الأنواع. أما الزابوتيك في الجنوب فكانوا يرسلون أربعين سبيكة ذهبية ذات حجم محدد وعشرين كيساً من مواد تلوينية. ومن المدن الواقعة على خليج المكسيك كان الأزتك يتلقون الكاكاو والذهب وأربعاً وعشرين حزمة من الريش الفاخر ذي الألوان المختلفة وستة عقود أثنان منها من الزمرد الصافي وأربعة أقل قيمة من ذلك وعشرين من حلق الأذن من العنبر المرصع بالذهب ومائة وعاء مليء بالعنبر السائل وست عشرة حمولة من الكاوتشوك. ومن البلاد الشمالية البعيدة كان يأتي ستمائة كيلة من العسل وأربعون جرة كبيرة مليئة بالمغرة من أجل الرسم ومائة وستون مجنة من النحاس وأربعون صحناً مستديراً من الذهب سماتها محددة وعشرة أوزان صغيرة من الفيروز النقي وحمولة من الفيروز الأصفر. وثمة من المدن المفتوحة من كانت تسدد ضريبتها من مواد البناء والقصب والحجارة وغير ذلك، بينما تقدم مدن أخرى تجهيزات من مختلف الأدوات اللازمة لقصر الملك. وأما الضرائب الأكثر فقراً فكانت تقدم على شكل ثعابين وعقارب ومخلوقات أخرى ضارة بما في ذلك البراغيث.

والصفـة الأكثر تميزاً لهذه الامبراطورية الواسعة كانت في توسعها السـريـع في المكـان وخـلال عدد محدود من القرون . وكان المحارب هو الآلـة التي استخـدمت في ذلـك . ومن أجـل هذا كان من المناسب ان نختم هذا الفصل بوصف ما كان بالنسبة للأزتك حرباً .

فمنـذ أن يكـون الأطفـال في أطـرى عودهم كان الآبـاء والكهنة يدخلون في أذهانهم أن أسمى القيم في هذه الحياة الدنيا هي الشجاعة والنجـاح في ساحـة العـراك . وكـانت حروبهم تذكـر دائماً بالحمـلات الصليبيـة الـدينيـة . ولا يستطيع الملك نفسه أن يتوج قبل أن يقود حملة عسكرية ويأسر عدداً كبيراً من الأسرى يضحي بهم في أعياد التتويج .

وما أن يبلغ الفتى الخامسة عشرة من العمر ويعود من أول معركة له وهـو يقـود أسـيراً حصـل عليه بمساعدة من اقرانه حتى يوجه له أبوه مقـالـة تكـاد تكـون فظة «يا بني لقد غسـلت الشمس والأرض وجددت إيمانـك لأن الجرأة واتتك لأن تأتي بأسير بمساعدة من الآخرين . ولقد كان ينبغي ـ مع الأسف ـ أن تترك لرحمة العدو لكي لا تحاول بعد ذلك أن تعتمـد على الآخـرين . فإذا تكرر منك ذلك فإن باقة ستوضع على أذنـك الأخـرى حتى تشبـه البنـات . والحقيقـة أن من الأفضل لك أن تموت من أن أرى هذا العار يتكرر من جديد» .

وعنـدمـا يستثـار الشـاب على هذا الشكـل فإنـه لن يتوانى في المستقبـل عن أن يعـود بكـل المفـاخر التي يستطيع أن يحققها . وإذا أتى بثلاثـة من الأسـرى أصبـح من حقـه ان يقود فصيلاً ، وإذا عاد بأربعة اسـرى أصبـح نقيباً (CAPITAINE) وحق له أن يعلق في شفتيه حلقات طويلة (LABRETS) وفي أذنيه حلقات من النحاس وعلى رأسه ذوائب لامعة . وبخمسة من الأسرى يصل إلى مرتبة «النسر الذي يقود» ويحمل على رأسـه ريشـة ذات خيـوط فضيـة ويرتدي أردية ذات زينة خاصة .

وتصفه لنا المخطوطات مكلفاً بصلاحيات الكاهن الأكبر عندما يمضي إلى ساحة القتال لإثارة حمية المحاربين وليعطي لأوامره وزناً أثقل. ونستطيع أن نميز زينة مجنّه والأصباغ الموجودة على جسده والدرع الذي يرتديه وشكل شعره والزينات المختلفة التي يسمح للمحاربين بأن يحموها بحسب عدد الأسرى الذين عادوا بهم من ساحات القتال.

وكانت توجد ثلاث رابطات عسكرية مميزة تكاد تكون مفتوحة أمام كل المحاربين، وربما كان يوجد منها أكثر من ذلك. فالمنتمون إلى الأولى منها كانوا يسمون «الأمراء»، والمنتمون إلى الثانية هم «النسور»، وإلى الثالثة «النمور». ويتميز أعضاء الأولى بأنهم كانوا يحملون شعوراً معقودة على قمة الرأس برباط أحمر وموزعة على جدائل يتناسب عددها مع عدد ما أحرز المحارب من مآثر. أما النسور فلهم زي خاص بهم يذكر برأس النسر، وللنمور درع مبرقش كجلد النمر الذي يحملون اسمه.

ويقدم محاربو الأزتك مشهداً جيلاً عندما يسيرون إلى المعركة بدروعهم ومجناتهم المزينة وألبستهم اللامعة بينما تشع في الشمس أغطية رؤوسهم المصنوعة من رياش طير الكيتزال الجميلة وأرديتهم من الريش الأخضر الذي يخالطه خيوط من الذهب ومن التوسيفيتل، وبلباس ينزل حتى الركب مصنوع من ريش الماكاو الأصفر وموشى بالذهب، ويعلو كل ذلك قطعة من الذهب مزينة بريش من طائر الكيتزال.

وما أن تعلن الحرب حتى يُرسل الجواسيس فوراً للاستطلاع وليدرسوا طبيعة الأرض التي سيقوم الهجوم عليها والموارد التي يعتمد عليها العدو. وما أن تتم الطقوس الدينية التي لا بد منها حتى يتهيأ الجميع للمسير. ويمضي الكهنة قبل يوم من الآخرين وهم يحملون الأوثان ثم يتبعهم من بقي من الجيش. وفي أثناء الطريق تسير الأمور

على أتم نظام. وعندما يتم الاقتراب من معسكر العدو يقوم القادة بتعيين الأرض التي يجب أن تحتلها كل فرقة عسكرية. ويتوجه القائد قبل المعركة بخطاب إلى جيوشه مذكراً إياهم بالشرف الذي يعود على أولئك الذين سيخرجون من المعركة ظافرين وناصحاً لهم بأن يتطلعوا بثقة إلى هويتزيلو بوشتلي المهم الكبير.

وفي المعركة نفسها لا يلاحظ وجود سوقية TACTIQUE معينة. فكانوا يحتفظون دائماً بعدد من المحاربين كي يحلوا محل الجرحى أو من يصيبهم الإرهاق. ويبدأ النبالون وحملة المقاليع وحملة الحراب برمي قذائفهم ثم يقتربون شيئاً فشيئاً حتى يصبحوا قريبين جداً من العدو ليستعملوا عند ذلك المزاريق والسيوف. وأحياناً يسعون إلى القتال وهم يتراجعون ليجروا العدو إلى كمين كان قد أعد من قبل. ولم تكن الغاية من العمليات العسكرية قتل الأعداء وإنما يؤخذ منهم أكبر عدد من الأسرى.

على مثل هذه الحروب قامت عظمة جيش الأزتك. وهي مهما بلغ بها التنظيم لم تكن تختلف عن الحروب القبلية الكبرى أو رحلات الصيد التي كانت تلعب دوراً كبيراً في حياة أغلبية الهنود الذين كانوا يعيشون إلى الشمال من الريوغراند. ونحن نجد بين قبائل الولايات المتحدة وعلى الأخص في السهوب ملامح هذا المحارب المثالي والتجهيزات القتالية وعادات الحروب. ولكن الترابط الداخلي اختفى واختفى معه لحسن الحظ الهدف الرهيب الشرس الذي كانت من أجله تصنع هذه الأدوات وهو إخضاع الشعوب الأخرى وأخذ الأسرى لتضحيتهم إلى هويتزيلو بوشتلي إله الحروب الكبير. وبقيت من هذه العادات الدموية عادة واحدة هي انتزاع قلب العدو من بين أحشائه. فهذه الذكرى المخففة عن التضحية التي كانت تقدم فيما مضى

لمويتزيلو بوشتلي بقيت قائمة بين العديد من القبائل وإلى الشمال حتى كندا.

وبقي بهاء المايا في المكسيك يلمع بسطوع مختلف تماماً وأكثر ضعفاً. فقد تعدل كل شيء، فأضاع الفن أصالته، واختفى المعنى الأول للكتابات الهير وغليفية التي تحولت إلى رموز تافهة غير قادرة على الدلالة بشيء من الدقة على التواريخ. وهكذا أخذ الإرث الثقافي يتقلص وينكمش شيئاً فشيئاً، ومع ذلك، وعلى الرغم من هذا الانحطاط، فإن حضارة الأزتك التي قامت على التنسيق والتوفيق كانت لا تزال معقدة جداً من وجهة النظر الاقتصادية والاجتماعية والفنية حتى ليبدو فظاً بالنسبة إليها كل ما وجد إلى الشمال من المكسيك. ولنتذكر أخيراً أن حضارة الأزتك لها من الأهمية ما يتجاوز حدود وجودها لأنها حافظت على أكثر من طقس وأكثر من طريقة للتفكير وأكثر من نظرة مثالية استعيرت كلها من المايا ولكن لم يبق منها لدى المايا أنفسهم أي أثر. وهكذا ينبغي علينا أن نقدر حضارة الأزتك على أنها تعميم لحضارة المايا مع ما يدخل على الحضارة في مثل هذه الحالة من تغيير وتبديل ليس من حدوثهما بُد. وإذا ما وجدنا مشابهات صارخة بين الأزتك وبين الشعوب الأصلية من سكان الولايات المتحدة فلا ينبغي أن نعزوها إلى نفوذ الأزتك المباشر وإنما إلى واقع أن هذه الشعوب احتفظت هي أيضاً بذكرى دفقات ثقافية عديدة وصلت إليها خلال عصور مختلفة على شكل إشعاعات من غواتيمالا ويوكاتان.

ومنذ أن سيطر الأزتك أخذنا نشاهد التفكك المتمادي في إرث المايا الثقافي الذي ما لبث أن أضاع مظهره وجوهره وكل تماسك كان أصيلاً فيه. وقد احتفظت شعوب ما قبل التاريخ في المكسيك الشمالية وفي جنوب غربي الولايات المتحدة على البنية منه، وربما بقيت فيهم

الروح القديمة التي كانت تنعش العصر الذهبي للمايا، ولكن لم يبق من ذلك لدى الشعوب الحديثة في جنوبي غرب الولايات المتحدة إلا الغلاف. وإذا كنا لا نزال نكتشف فيهم عناصر أساسية مما كان يملأ هذا القالب القديم، فإن هذه العناصر أصبح كل منها كياناً قائماً بذاته وأصبح ينتمي إلى تركيبات جديدة ليس لها علاقة بالقالب القديم. وفي كل مكان من الولايات المتحدة نشعر الآن غريزياً بوجود هذه العناصر القديمة، حتى اننا نصل أحياناً الى اكتشافها مبعثرة مجتثة من أرومتها الأصلية، وهي تحاول أن تتحد مصادفة مع كل ما تلاقيه في الطريق.

الفصل الرابع

سكان بيرو القدماء

في يوم الأحد السادس والعشرين من حزيران يونيه عام ١٥٤١م كانت مدينة ليما الصغيرة تعج بالضجيج بسبب التواطؤ وبسبب المصيبة الوشيكة الوقوع. فقد أوشكت أن تندلع الحرب الأهلية التي ستجتاح البير وخلال العديد من السنين، ذلك لأن الحسد والأحقاد والرغبة في الانتقام بسبب أخطاء حقيقية أو وهمية كانت تقسم الفاتحين الإسبان وتقضي على ما بينهم من وحدة الصف. وكان لفرانسوا بيزار المنتصر على الإنكا كل الحق في أن ينتظر من خصومه الجزاء الحق ولكنه كان بعيداً جداً عن أن يساور قلبه ظل من الخوف. وكان يومذاك يتناول وجبة العشاء محاطاً بأصدقائه ولكنه يشعر بضيق شديد مما كان يعتبره ضجة مفرطة في الفناء. ولم يشعر بخطورة هذه الجلبة القائمة في الخارج إلا عندما أسرع واحد من خدمه إلى الغرفة يحمل إليه النبأ بأن جيشاً إسبانياً اقتحم المنزل وهو يصيح «عاش الملك والموت للطاغية!».

فشبّك عندئذ درعه وتهيأ للدفاع. وكانت المعركة قصيرة الأجل التحم

فيهـا المتصـارعـون جسـداً إلى جسـد، فجـرح في حلقـه وارتمى فغـرز المتـآمـرون سيفـاً في جسـده. وبينـما كان يعاني سكرات الموت صاح «يا يسـوع» وهـو يرسـم شارة الصليب على الأرض وينحني ليقبلهـا قبل أن يفارق الحياة.

وهكـذا انتهى واحـد من أشد المغامرين قسوة وفظاظة في التاريخ المعـروف. وكـان قد كرس حيـاتـه للبحث عن الـذهـب والـسلطة. وقد أرضى رغباته ولكن بعد افساد وتدمير حضارة فاتنة مثيرة للفضول هي حضارة امبراطورية «أبناء الشمس» إنكا البيرو.

فمن هؤلاء وكيف حكموا؟

الـذين اجتـازوا هذه المنطقـة يستطيعون وحدهم أن يكونوا فكرة عن الصعـوبـات التي قابلتهـا حكـومـة البيرو. فهنا تتناوب الصحاري الجافة مع الهضاب العالية التي لا يسكنها هي الأخرى أحد. وكان لا بد لكل محاولة لإقامة وحدة سياسية أن تحسب حساباً للحدود التي يفرضها التشكل الجغرافي للبـلاد. وبالإضافة إلى هذه العوائق كانت الوحدة تصطـدم بالتبـاين بين السكـان المؤلفين من شعـوب تتمثـل فيهـا كل درجات التطور الثقافي بدءاً من أحفاد الحضارات القديمة العليا الذين كان الإنكـا قد اندمجوا بهم جزئياً حتى القبـائل البدائية الهمجية التي كانت تجوب في الشـرق. فليس من المستغـرب إذن أن يصـر الجنـدي الشيخ جييزادي ليـون على أنـه «كان يوجد في بلاد البيرو هذه ثلاث مناطق قاحلة لا يستطيـع أن يعيش فيهما أحـد. أولاهـا تشمل غابات جبـال الأنـد، وهي غابـات وحشية لم يتمكن أن يعيش فيهـا الإنسـان قط. والثانية منطقة جبلية تمتد على طول سلسلة الآند ويسود فيها برد شديد وتكتسي قممها بالثلج الدائم ولا يستطيع أن يعيش فيها أحد. والثالثة

تشمل الصحاري الرملية حيث لا يمكننا أن نرى إلا تلالاً من الرمال وشمساً عرقة تجفف كل شيء».

وما بين هذه الصحاري الثلاث كانت توجد مناطق مكتظة بالسكان. فوهاد وخوانق الأند كانت تمتد وتتعمق في وديان ضيقة وعميقة لدرجة أن الرياح الباردة لا تصل إليها أبداً. وكان سكان هذه الوديان الخصيبة المدهشة أشداء يتمتعون بصحة جيدة. إلا أننا يجب أن نسجل هنا أيضاً ما قاله جيبزادي ليون: «ففي كل مكان ترتفع فيه أجمات من الأشجار كانت الأرض خالية من الرمال وخصيبة جداً. وكانت هذه الوديان في الماضي كثيرة السكان ولا يزال يعيش فيها هنود حتى الآن وإن كانوا أقل عدداً مما كانوا عليه في الماضي. وبما أن السماء لا تمطر هنا أبداً فإنهم لم يكونوا يصنعون سقوفاً لبيوتهم كما هي العادة في الجبال، وانما يبنون بيوتاً كبيرة من اللبن (الأجر المجفف بالشمس) تغطيها حصائر يحتمون بها من الشمس، وقبل أن يقوموا بزراعة حقولهم حفروا قنوات لري الوديان بمياه الأنهار، وهي قنوات حسنة الصنع قد بلغت درجة عالية من النظام لدرجة أن كل البلاد كانت تروى دون أن يفيض شيء من الماء. وقد جعل نظام الري هذا من الوديان وديانا خضراً ذوات منظر يسر الناظرين. وكانوا يجنون أفضل المحاصيل في كل وقت من الذرة ومما يبذرونه من الزراعات الأخرى. وهكذا، وعلى الرغم من وصفي لبيرو بأنها تتشكل من مناطق صحراوية، فإنها مع ذلك وبحمد الله تخترقها وديان وانهار لم يكن بالإمكان ان يعيش بدونها إنسان. ولهذا السبب كان من السهل الانتصار على الوطنيين، فلو أنهم ثاروا لكان مصيرهم الهلاك من البرد ومن الجوع».

وعلى الرغم من أن هذه الوديان أمكن فتحها بسهولة سواء على يد وطنيين من أبناء البلاد أم على يد البيض الغزاة فإن طبيعة البلاد التي

وصفهـا لنـا جيـيزادي ليون هذا الوصف الدقيق كانت تقاوم كل محاولة للحكم المـركـزي . ومع ذلك فإن المركزية السياسية قد تحققت على يد الإنكـا فكـانت، بين أشيـاء أخرى، سببـاً في شهرة إمبراطورية «أبناء الشمس»، وهـو اللقب الـذي كان يحمله ملوك البيرو ومنذ زمن لا تصل إليه الذكريات .

ومع ذلك فإن الحضارة التي صادفها بيزارو في بيرو كانت ـ كما هي الحـال لدى الأزتـك ـ قد بنيت على أنقـاض حضارة سابقة لها . وأثمن العنـاصـر التي ورثتهـا كان الاعتقاد بسيادة الشمس الإله الخالق باعث الحياة في كل شيء وبتجسـده على الأرض في شخص الملك . وكـانت الشعـوب الـسـابقـة للإنكـا تسميـه باشـا كامـاك، بينما سماه الإنكـا ويراكوشا، وإليك الترتيلة التي كانوا يترنمون بها على شرفه :

يا ويراكوشا يا سيد الكون!
سواء كنتَ رجلاً
أو كنت أنثى
يا سيد الإنجاب
مهما كان من أمرك
يا سيد الألوهية
أين تقيم؟
أنت تستطيع أن تعيش في السماء
وتستطيع أن تعيش على هذه الأرض الدنيا
أو ربما حول عرشك الباهي وحول صولجانك
ألا فاستمع إلي
من علياء سمائك
هناك حيث يحتمل أن تعيش

يا خالق الكون
أنت يا من صنعت بني البشر
يا سيد الأسياد
عيناي لم تعودا تريان
لكثرة شوقهما إلى معرفتك
عظيمة هي رغبتي في ان اراك
فهل أستطيع ان اراك
هل أستطيع أن أعرفك
هل أستطيع أن اتأملك
هل أستطيع أن أفهمك
الا فالق بنظرة عليّ
فانا أعرفك
الشمس والقمر
والنهار والليل
كلها طوع بنانك
ياويراكوشا!
كلهم يتوجهون
إلى الغاية التي حددتها لهم
بمحض رغبتك
أنت يا من تمسك بالصولجان الملكي
استمع اليّ
وليقع اختيارك عليّ
ولا تسمح أبداً
بأن يضنيني التعب

أو أن ينتصر الموت عليّ .

ومن أجل هذا اقيم أكثر المعابد شهرة في البير ووهو معبد كورزكو على شرف هذا الإله الشمس . وقد زاد الملوك المختلفون في إغنائه حتى أن الإنكا أنفسهم كانوا يطلقون عليه اسم «المكان الذهبي» . وقد أكد سارميانتو أحد المؤلفين الجديرين بالتصديق ، وكان قد رآه في عز بهائه وجماله ، أنه لم يكن يوجد في كل إسبانيا إلا بناءان يمكن أن يضاهياه في الإتقان والكمال . وكان قسمه الداخلي أكثر أبهة أيضاً من مظهره الخارجي . وقد رسم ويراكوشا على الجدار الغربي منه على هيئة انسان وسط كمية غير متناهية من الأشعة المضيئة التي تذهب في كل اتجاه .

ولقد تبارى المؤرخون الاسبانيون في وصف هذا المعبد . ويعتبر الوصف الذي قدمه لنا بريسكوت قطعة جميلة من النثر الإنكليزي : «كانت صورة ويراكوشا محفورة على صفيحة ذهبية سميكة ذات أبعاد عظيمة ومزينة بالزمرد والأحجار الثمينة . وكانت موضوعة أمام الباب الشرقي الكبير بحيث أن أشعة الفجر الأولى تنعكس على الزينات الذهبية التي كانت تُغشّي السقف وجميع الجدران . وكان الذهب ، «وهو الدموع التي تسكبها الشمس» ، كما يقول سكان بيرو وهؤلاء ، يلمع في كل مكان ، كما أن الداخل كله كان يضيء من الصفائح الذهبية الصقيلة ومن المسامير المصنوعة من هذا المعدن الثمين . أما الأفاريز التي تحيط بالهيكل فكانت من المعدن نفسه أيضاً . بينما رُصع الجدار الخارجي بعصابة أو إفريز من الذهب يحيط بكامل البناء» .

وكانت عبادة الشمس قد اخترقت حياتهم وكيانهم حتى الأعماق لدرجة أن الإنكا كانوا ينسبون إليها كل ما هو جميل في الوجود . وبعد فتوحاتهم التي يمكن أن توصف بدون شكل أنها امبريالية عندما كانوا يتكرمون بتسويغ الضرائب الباهظة التي كانوا يفرضونها على الشعوب

المغلوبة كانوا يذكرونهم بأنهم «أبناء الشمس» الذين يمنون عليهم بإحسان. وقد ترك لنا غارسيلا سودي لافيغا الذي ينتسب هو نفسه إلى العائلة المالكة الإسبانية لائحة المبادىء التالية منسوبة إلى واحد من الإنكا حيث قال:

«إعلم أن هذه المنطقة كانت كلها في الماضي مغطاة بالغابات والحراج وأن الناس كانوا يعيشون فيها كما تعيش الوحوش بدون دين ولا حكومة ولا مدن ولا بيوت، ومن غير أن يزرعوا الأرض أو يلبسوا الثياب لأنهم لم يكونوا يعرفون أن ينسجوا قطناً ولا صوفاً. وعندما رأى أبونا الشمس هذا الجنس من بني الإنسان في مثل هذا الشقاء تأثر وأخذته الشفقة بهم والرحمة فأرسل ابنه وابنته من السماء إلى الأرض ليتخذهم الناس إلهين لهم وليعلماهم الآداب والقوانين التي بها يستطيعون العيش أناساً عاقلين ومتحضرين، وليتعلموا السكنى في البيوت والمدن وزراعة الذرة والنباتات الأخرى والاعتناء بالقطعان واستعمال ثمار الأرض ككائنات عاقلة ولكي لا يعيشوا بعد ذلك كما تعيش السوائم. من أجل هذه الغاية أنزل أبونا الشمس ولديه فوق بحيرة تيتيكاكا طالباً منهما أن يذهبا حيث شاءا وأن يزرعا الأرض حيثما توقفا من أجل أن يأكلا ويناما وأعطاهما صولجاناً ذهبياً طوله نصف متر وسمكه إصبعان. وقد أعطاهما هذه العصا ليعلما أن رغبة أبينا الشمس هي في أن يستقرا حيث تنغرز في الأرض من ضربة واحدة وأن ينشئا في ذلك المكان بلاطهما. وأخيراً قال لهما: «وعندما يصبح هؤلاء الناس خدماً لكما فإنكما ستسهران على أن يحرصوا على العدالة والتعقل، وعلى أن يكونوا أتقياء، متسامحين ولطفاء، وستتصرفان معهم كما يتصرف الأب الحنون تجاه أبنائه الذين يحب. وهكذا ستكونان ظلي وصداي. فأنا محسن للكون كله أنشر الضياء لير الناس ولينجزوا ما عليهم من مهمات. أدفئهم من برد

وأغذّي مراعيهم ومحاصيلهم وانضج ثمارهم وأضاعف قطعانهم واغسل أرضهم بالندى وآتيهم بالطقس الجميل والموسم الحسن، وأتم في كل يوم دورتي حول الأرض لأعرف ما يحتاجه الناس وأظهر سلطتي على المحسن والمسيء. وإنني لأرغب في أن تسيرا على خطاي، لأنني أرسلتكما إلى الأرض يا ولدي لتقوما على إسعاد وتثقيف هؤلاء الناس الذين يعيشون كالحيوانات. وإنني سأسميكما منذ هذه اللحظة ملوكاً وأسياداً على كل هذه القبائل لتعلماهم الحكمة وطيب الحكم».

فمن أية طبيعة إذن كان هذا الحكم الذي سوّغ نفسه بتلك الطريقة العصرية العصرية؟. لقد كانت دولة اشتراكية تيوقراطية ليس لها ما يشبهها بعد مصر القديمة. وعلى العكس من الأزتك فإن الإنكا لم ينجحوا فقط في التغلب على الشعوب الغريبة وإنما ذهبوا إلى أبعد من ذلك بأن نزعوا منهم استقلالهم وكسروا فيهم كل روح للمقاومة وأدمجوهم إدماجاً كاملاً في الدولة الجديدة. ولم يكن الأزتك قادرين على ذلك إلا في حالة مدينة واحدة وخلال فترة قصيرة سبقت الفتح الإسباني للبلاد.

على رأس الدولة كان يوجد الملك الإله الذي يحمل لقب الإنكا لا أكثر من ذلك. وكان ينفصل عن رعاياه بهوة ليس لها قرار. ولكن بينما كانت الدولة من الناحية الرسمية دولة استبدادية محضة فإننا لا نعتقد بأن الإنكا كان يملك هذه السلطة التعسفية التي جرت العادة بأن نلصقها بالطغاة الأوروبيين أو الأسيويين. إلا أنه بصفته رئيساً مدنياً ودينياً وعسكرياً وبفضل سموه الإلهي فإن قدرته تبدو من غير حدود وتبدو كل السلطة متمركزة بين يديه. ويؤكد قدماء المؤرخين بأنه كان يجيش الجيوش ويقودها غالباً بنفسه ويفرض الضرائب ويعين القضاة المكلفين

بتنفيذ هذه القوانين، وبالاختصار فإنه كان مصدر كل سلطة ومرجع كل كسب.

وكان مظهره الخارجي وبلاطه متناغمين مع أصله الإلهي، ولذلك كانت الطريقة الوحيدة التي يلجأ إليها الإنكا للاتصال بشعبة هي أن يقوم برحلة رسمية في أنحاء مملكته.

وعندما كان الإنكا[1] في أوقات السلم يزورون المقاطعات في امبراطوريتهم فانهم كانوا يسافرون بكل مظاهر الفخامة وهم جالسون على محفات نفيسة تحملها عوارض من الخشب الثمين طويلة ومغطاة بتكفيتات من الذهب والفضة. ويعلو المحفة قوسان كبيران من الذهب تزينهما الأحجار الثمينة وسجف طويلة تغطي المحفة من كل جانب. فإذا أراد الإنكا أن يكون متوارياً عن الأنظار بقيت السجف مسدلة ولا تكشف إلا عند الدخول والخروج. ومن أجل أن يرى الطريق ويستنشق الهواء العليل صنعت ثقوب في هذه السجف وزينت أحسن زينة. فعلى بعض هذه السجف طُرِّزت الشمس والقمر وطرزت على بعضها الآخر ثعابين ملتوية يفصل بينها ما يبدو أنه عِصِيّ كانوا يحملونها شعارات أو أسلحة. وكانت هذه المحفات تحمل على أكتاف أكبر سادة المملكة، ومن كان منهم يثابر على هذه المهمة التي كانت تعتبر منة كبرى كان ينال أعلى مراتب الشرف.

وكانت المحفة محاطة بالحرس الملكي والرماة وحاملي البلطات الطويلة الساق. وكان يتقدمهم خمسة آلاف من رماة المقاليع ومن جنود مسلحين بالحراب. وعلى جانبي الطريق وعلى الطريق نفسه يقوم

---

1 ـ جرت العادة أن يطلق لفظ «إنكا» على الملك وعلى مجموعة الملوك وعلى الشعب الخاضع لهؤلاء الملوك في الوقت نفسه. ـ المترجم

سعاة يجربون بالرصد ويخبرون عن تقدم موكب الملك. وكان سيل كبير من السكان يأتي لرؤية موكب السلطان لدرجة أن التلال كلها كانت تغطى بالمشاهدين. وكان الجميع يباركون مليكهم بإطلاق الصياح وترديد العبارة المعتادة في مثل هذه الأحوال: «أيها السيد الكبير القادر ابن الشمس أنت مولانا والعالم كله تحت طاعتك». ويضيف المؤرخ إلى ذلك أن الناس كانوا يضيفون إلى هذه العبارة عبارات أخرى وأنه لا يستبعد أنهم كانوا يعبدون الإنكا على أنه إله.

وفق كل ذلك كان هنالك هنود يسبقون الحاشية كي ينظفوا الطريق من الأعشاب والحجارة ويجعلوه نظيفاً أملس. وكان الإنكا يقطع المسافة التي تعجبه في كل يوم وهي تبلغ بوجه عام ما يقارب العشرين كيلومتراً. وكان يستريح في بعض الأماكن ليتابع أحوال البلاد ويصغي بطيب خاطر لمن يريد أن يعرض عليه شكواه معاقباً المخطئين وراداً الحق للمظلومين.

وكان الملك في أنظار الجميع ماهية خاصة وجوهراً يختلف عن كل ما عداه. وهو يحكم رعاياه من عل سواء كانوا نبلاء أو وضيعين. وكان مرغماً على أن يتزوج من أسرته المباشرة، وكانت أخته الشقيقة هي زوجته الرسمية على الدوام.

ومع ذلك، وعلى الرغم مما يبدو من مظاهر، فإن سلطة الإنكا لم تكن مطلقة. فكما هو الأمر بالنسب للكثير من الأنظمة البيروقراطية كانت الدولة محكومة بموظفين حسب نظام تسلسلي حسن التنظيم وحسن التطبيق. وما كان يعطي الملك سلطته ونفوذه هو أن الأعباء الهامة في المملكة وبخاصة المراكز الدينية العليا كانت بيد أقربائه المباشرين الذين كان يمارس عليهم بطبيعة الحال رقابة كبيرة. ومع ذلك

فإنه لم يكن هو - ولم يدّعِ ذلك أحد - من يعهد إليهم بهذه المراكز، وإنما كانوا ينالونها بموجب القانون.

وعلى الرغم من أن الملك كان من الناحية النظرية رئيس الكنيسة فإنه كان في الواقع يعهد بسلطاته لأشخاص يتم اختيارهم اختياراً خاصاً لهذه المهمة. فالكاهن الأكبر كان أخاه ويأتي مباشرة في الأهمية بعده وهو الذي يقوم بتعيين مساعديه. وبما أن المراكز الدينية العليا ينبغي أن تكون من نصيب العائلة المالكة فلا بد أن تكون الكلمة الأخيرة في كل أمر يتصل بالدين والطقوس منوطة بالملك وأقربائه المباشرين. وكانت سلطة الكهنة محدودة بعض الشيء ومحصورة فقط بقضايا الطقوس. ولم يكن الإشراف الذي تمارسه العائلة المالكة على الكنيسة يزيد فقط في سلطتها السياسية وانما يساهم أيضاً في رفع هيبتها وما كان يحيط بها من احترام.

أما المجتمع لدى الإنكا فكان يعتمد على نظام للطبقات شديد وحاسم ويتألف من النبلاء ومن العامة الذين لا ينبغي لهم أن يعدوا اتحادات فيما بينهم. وكان النبلاء ينقسمون إلى طبقتين متميزتين هما أفراد العائلة المالكة ورؤساء الأمم التي أخضعتهم وكل ما تناسل منهم من أحفاد. أما المركزية الشديدة التي كانت احدى المميزات الأكثر إثارة للدهشة في حكومة الإنكا فقد كان مردها أن كل الموظفين المهمين مع قائد الجيوش وقواد الحاميات البعيدة وحكام المقاطعات كانوا من أفراد العائلة المالكة أو يرتبطون بها، وكانوا مجبرين بقدر الإمكان على أن تكون معيشتهم في البلاط.

ولم يكن يعهد إلى النبلاء من الطبقة الثانية إلا وظائف ذات أهمية ثانوية، كما أن سلطتهم كانت محلية جداً ومحدودة في مقاطعاتهم التي عاش فيها أجدادهم وهو تدبير عاقل جداً في الواقع وبفضله أمكن

المحافظة على القليل من الاستقلال المحلي الذي بقي في هذه المقاطعات على يد أناس كانوا يجيدون معرفة البلاد وكانت سلطتهم تلقى أقل ممانعة ممكنة من جانب الشعوب المهزومة. ولكي لا يتمكن هؤلاء الزعماء المحليون من الإفلات من قبضة السلطة الملكية فإنهم كانوا ملزمين بأن يزوروا العاصمة بين حين وحين.

وكانت المملكة بدافع إداري وتبعاً لتقسيم قديم تنقسم إلى أربع مقاطعات، وكذلك كان الأمر في مدينة كوسكو أيضاً. وكانت أربعة طرق تصل بين العاصمة المركزية ومراكز هذه المقاطعات. وعلى كل من هذه المقاطعات كان يحكم حاكم هو جزء لا يتجزأ من حاشية الملك المباشرة. وكانت كل مقاطعة تنقسم بدورها إلى أربع مديريات CANTONS عدد سكان كل منها عشرة آلاف من السكان وعلى رأسها نائب للحاكم ينتمي هو الآخر إلى طبقة النبلاء. ثم يقسم السكان في النهاية إلى وحدات كل منها يتألف من ألف انسان أو خمسمائة أو مائة أو خمسين تدار بطريق التسلسل على يد موظفين. ومن الواضح أننا لا نستطيع أن نوغل في البيروقراطية بأكثر مما رأيناه في هذا النظام.

وقد أبدى الإنكا العبقرية التنظيمية نفسها في توزيعهم لموارد البلاد. فقد قسمت أراضي المملكة إلى ثلاثة أقسام، فكانت عائدات القسم الأول تغطي النفقات الكبيرة التي تتطلبها عبادة الشمس وما يلحق بها من كهنة عديدين. وتخصص عائدات القسم الثاني للعائلة المالكة ولكل طبقة النبلاء. وأخيراً فإن عائدات القسم الثالث كانت تعود إلى بقية الشعب. وكانت الأرض المخصصة لشعب تقسم بدورها إلى قطع صغيرة تختلف مساحتها بحسب حاجة كل عائلة. وكان على

كل بيري[٢] أن يتزوج في سن محددة، وكان يتلقى في هذه المناسبة مسكناً وقطعة من الأرض تكفي لتغذيته هو وزوجته. وعندما يولد له أولاد تزاد حصته بحيث يكون للذكر من أبنائه مثل حظ الأنثيين. ومن أجل أن يكون هذا التنظيم مجدياً كانت الأراضي يعاد توزيعها من جديد في كل عام وتزداد أو تنقص الأملاك المخصصة لكل فرد بحسب حجم عائلته.

وكانت الأرض تزرع من قبل العامة فقط وبحسب نظام للتعاقب محدد. مثال ذلك أنهم يبدؤون بزراعة أراضي الشمس، أي الأراضي المخصصة للكنيسة. ومنها ينتقلون إلى أراضي العجائز فأراضي المرضى فالأرامل فالأيتام فالجنود الغائبين، ثم يلي ذلك زراعة الأراضي التي يمتلكها الأفراد، وأخيراً ينتقلون لزراعة أراضي الإنكا.

وكان ثمة أنظمة شديدة مشابهة تطبق على صناعات الإمبراطورية الأخرى كتربية القطعان من اللاما وصناعة النسيج واستثمار المناجم وتنفيذ الأشغال العامة الكبرى.. إلى غير ذلك. فتربية اللاما مثلاً كانت موضوعاً لرعاية خاصة. وكان حراس القطعان يتمتعون بحياة أكثر حرية من حياة أولئك الذين يعيشون في المناطق الأكثر اعتدالاً من امبراطورية الإنكا ذات المناخات المختلفة. وقد ترك لنا أحد قدماء المؤرخين الإسبان هو أونديغاردو وصفاً جيلاً لهذه الحياة التي كان يمارسها هؤلاء الرعاة فكتب يقول:

«كان ثمة عدد من القواعد تختص بالقطعان بعضها حكيم لدرجة أنه لا يزال يصلح للتطبيق حتى اليوم. ويمكننا القول إن الناس في قسم كبير من المملكة كانوا يعيشون من قطعانهم التي كانت ترتعي في

---

٢ ـ البيريّ هو الموطن الذي ينتمي الى بيرو ـ المترجم

المناطق الأكثر برودة من البلاد، وهناك استقر الهنود كما في منطقة الكالآو CALLAO وعلى السفوح التي تنحدر نحو أريكيبا AREQUIPA ونحو الساحل في المناطق التي تسمى كارنكاس وأولآغاس وكيلّواس وكولآهواس. وكان يمكن لهذه المناطق أن تكون غير مسكونة لولا القطعان، ذلك لأنها على الرغم من قدرتها على تقديم عدة محاصيل إلا أن من عادتها ألا تنتج خلال ثلاث سنوات من أصل كل خمس، وليس بالإمكان الاعتماد على غيرها، ولكن القطعان هي التي جعلت الناس أكثر ثروة ومكنتهم من أن يلبسوا خيراً مما يفعل أمثالهم ممن يعيشون في المناطق الخصيبة. وهم يتمتعون بصحة جيدة وقراهم أكثر سكاناً من قرى الأراضي الدفيئة، لأن هؤلاء الأخيرين يقتصرون على محاصيلهم الخاصة بينما ينزل الرعاة قطعانهم وصوفهم إلى الوديان ثم يعودون إلى ديارهم محملين بما يحتاجونه من الذرة الصفراء».

وبعد جز اللاما كان الصوف يوضع في مستودعات عامة ثم يوزع على العائلات لكل عائلة بحسب احتياجاتها. وعند ذلك يبدؤون بالغزل والنسيج. ويتم في العاصمة تقرير الكمية التي يجب أن تنسج ونوعية النسيج ويتوزع على مختلف المقاطعات ما ألزمت به من مهمات. وبما أنه من الضروري أن يعهد بكل تفصيل من تفاصيل عملية النسيج إلى الأيدي الخبيرة بها فقد كان يتم تعيين موظفين يكلفون بالسهر على سلامة الإنتاج. وكان هؤلاء يدخلون حتى إلى البيوت الخاصة للتأكد من أن كل عائلة تقوم باستعمال المواد التي قدمت لها استعمالاً حسناً وبالطريقة المقررة وأن أي مكان لا تنقصه المادة الأولية اللازمة لهذه الصناعة.

ومن البديهي أنه من أجل تنفيذ هذه المشاريع تنفيذاً حسناً بحيث يشغل كل انسان المكان المحدد له ويقوم بالمهمة الدقيقة الموكلة اليه لا

بد من أن يكون ثمة كشف احصائي دقيق للسكان. وكانوا يحصلون على ذلك بتسجيلهم كل الولادات وكل الوفيات في البلاد. ومن جهة أخرى فإن موظفين من العاصمة كانوا يجوبون دائماً في المناطق المختلفة لدراسة طبيعة الأرض ومدى خصوبتها ومنتجاتها، وهكذا كانت الحكومة المركزية تستطيع أن تقدر كمية المواد المطلوبة والعمل الذي يمكنهم أن يطلبوه من المقاطعات ليكون الإنتاج كماً وكيفاً على خير ما ينتظر منه.

وكانت الوسيلة الوحيدة المعروفة للتدوين هي طريقة «العُقَد» الشهيرة التي توضع في حبال حيرت المؤرخين الإسبانيين الأوائل ردحا من الزمان. وكانت الكيبو QUIPU (أي ذات العقد) تتألف دائماً من حبل رئيسي ترتبط به حبال جانبية صغيرة كأنها أهداب توزع على مجموعات يضم كل منها بصورة عامة المجموع نفسه من العُقد. وكانت ترتبط بالحبال الرئيسية حبال ثانوية يتولد منها تفرعات أخرى على كل واحد منها أهداب معقودة. ولا تظهر العقد إلا على الحبال الجانبية (أو الأهداب) وتكون على أنواع مختلفة. والرئيسي منها هو العقدة البسيطة التي نعد منها على الحبل الجانبي حتى خمس عقد أو يزيد، وبعدها تأتي عقدة طويلة أو عقدة فلمندية. ولكل من هذه العقد بحسب نموذجها ووضعها قيمة عددية. فالعقد الفلمندية تمثل الأعداد واحد وعشرة ومائة. والعقدة الطويلة العدد عشرة أو مائة، والعقدة البسيطة عشرة ومائة وألف وعشرة آلاف. وفي واحدة من هذه الكيبوسات (ذوات العقد) كانت العقد في الصف الأسفل منها تستخدم للآحاد، وعقد الصف الأعلى تستخدم للعشرات، وصف آخر كانت تدل عقده على المئات، وآخر أيضاً تدل عقده الى الآلاف. وكانت هذه الحبال الصغيرة غالباً ذات ألوان مختلفة.

وكـان يعتقـد حتى ذلـك الوقت أن الكيبوسات انما تستعمل من أجل التعدادات العادية فحسب، ولكن عالماً معروفاً لاحظ حديثاً أن مما لا شك فيـه أن البـير بـين ربـما استخـدمـوهـا تقـاويم تدل على السنة الشمسيـة ومـدة الـدورات الاقـترانيـة لكـوكب الزهرة التي كان يعرفها المايا، كما تدل أيضاً على الدورات الاقترانية لكوكب المريخ.

ويؤكد أونديغاردو رجل القانون الاسباني المشهور الذي ندين له بمعظم معلومـاتنـا عن التنظيم الاجتماعي لدولة الإنكا ان شيئاً لم يكن يترك للمصادفة في هذه الدولة المذكورة. فتوزيع الأعمال مثلاً كان يقع على عاتق السلطات المحلية التي كانت تسهر بكل عناية على استعمال الكفاءات وعلى ألا يكلف انسان بما لا يتناسب مع كفاءته من عمل.

ولم يكن يهمل أي تفصيل. فعلى كل انسان أن يجتهد بقدر طاقته في إنجـاز المهمـة التي أوكلت اليه على خير وجه. وكان معظم البيريين الذين ينتمون إلى الطبقة الدينا من المزارعين، أما الذين أسندت اليهم أعمال التعدين أو أصبحوا حرفيين فكانوا يعفون من زراعة الأرض.

ومع ذلك، فإذا كان على كل انسـان أن يعمل فانه لم يكن يكلف بما لا يطيق. ولم يكن أحد يقدم لخدمة الدولة إلا جزءاً من وقته ثم يأتي غيره ليحـل محله. وأخـيراً فإن هذه الخـدمـة لم تكن تؤثر على الأعمال العادية للفرد بأية صورة من الصور أو تنال من ثروة العائلة. فكل الذين كانوا يسهمون في المشاريع العامة كانوا مع عائلاتهم تحت رعاية الدولة.

وكما كانت الامبراطوريـة الـرومانية كانت امبراطورية الإنكا تجتـازهـا شبكـة رائعة من الطرق وأقنية المياه والجسور والحصون القائمة على النقاط الهامة. ولم يؤثر شيء في الفاتحين الإسبان مثلما أثرت طرق الإنكـا. وكـان أشهـرهـا ومـا لاقى بناؤه أعظم الصعوبات هو الطريق

الـذاهب من كيتـو QUITO إلى كوزكو CUZCO ومن كوزكو إلى شيلي. وقد ترك لنا نائب الملك الإسباني وصفاً جيلاً لهذه الطرق الوطنية.

وقـد بني أطـول هذه الطـرقـات بدءاً من عهد الإنكا ويراكوشا. ومن أجـل تنفيـذ مبـدأ أن كل فرسخ يغطيه اثنان من السعاة بنيت على طول الطـريق بيـوت صغيرة من الخشب والقش يصبح سقفها مدعوماً بالحجارة في المناطق الجبلية. وكان يسكن في كل واحد من هذه البيوت بنـاء على أوامـر الإنكـا اثنـان من الهنود مجهزان بالمؤن تتعهد بإرسالها القـرى المجـاورة. ولم يكـونا يعيشـان فيه بصورة دائمة وإنما كان يتبدلان من وقت لآخـر. وكـان النظام الحكومي من القوة بحيث أنه كان يكفي اصدار هذا الأمر حتى يطبق ويوجد الرجلان فيما خصص لهما من مكان.

وكـانت كل ولايـة مكلفـة برعـاية المراكز الموجودة ضمن حدودها بدءاً من صحـارى السـاحـل حتى حقـول الجليـد في الجبـال. وعندما يستدعي الأمر إبلاغ السلطات في كوزو أو غيرها بحدوث أمر من الأمور أن أن ينقـل إليهـا خبر من الأخبـار كان رجـال هذه المـراكـز من السعاة يذهبـون من كيتـو أو تومبيـامبـا أو شيلي أو كارانكي أو أية نقطة من نقاط الإمبراطورية على السـاحل أو فوق الجبال فيركضون بأقصى سرعتهم دون توقف بحيث يغطي الواحد منهم نصف فرسخ أو ما يوازي اثنين ونصف من الكيلومـترات تقـريباً، وكانو يختارون دائماً من أسرع الرجال، فإذا أصبـح الـواحد منهم على مرأى المركز التالي ينذر من كان فيه بالعبارات التالية: «امض فوراً وانقل للمركز التالي كذا وكذا من الأخبار»، فيقوم الآخـر لدى تلقي هذا النـداء بالجـري فوراً بينما يدخل الأول إلى المركز ليستريح ويتناول طعامه من المؤن التي كانت موجودة دائماً في المستودع.

وهكذا كانت الأخبار تصل إلى الإنكا أو إلى حاكم الولاية في أقرب وقت .

وكـان هذا النظـام من الكمال بحيث أنهم كانوا يعلمون بما يجري أو بما يحتـاجـون معرفته من مسافات تصل إلى ثلاثمائة أو خمسمائة أو ربما ثمانمائة فرسخ وفي أقصر مدة ممكنة .

وكـانت احـدى هذه الطـرق تجتـاز الهضـاب العـالية بينما كانت طريق ثانية تتبع سهول السـاحل الواطئة . وبما أن الأولى تأثرت بطبيعة الأرض فإن بناءها كان بالغ الصعوبة ، إذ كان عليها أن تخترق سلاسل الجبـال الشـديدة الانحدار والمغطاة بالجليد ، وأن تحفر ممرات في الصخر قد يصـل طولهـا إلى عدة فراسخ ، أو تبني على الأنهـار جسوراً تتأرجح فوق الهـاويـة ، أو تنحت لها سلالم على شعف الجبـال القـائمة ، أو تملأ الفتحـات العميقـة بأدوات بناء متينة ، وبالاختصار أن تتغلب على كل العوائق التي تقدمها منطقة وحشية وعرة لا يقدم على التعامل معها أكثر المهنـدسين المعـاصـرين جرأة ، ومع ذلك فإن البيرين الشجعان المهرة تغلبوا على كل هذه الصعوبات . ويقـدر طول هذه الطريق التي لم يبق منهـا إلا أجـزاء منعـزلة ما بين ٢٤٠٠ ـ ٣٢٠٠كم على وجه التقريب . وكانت تنتصب على طولها صوى من الحجارة على مسافات محددة تبلغ الواحدة منها ما يقرب من الخمسة كيلومترات أو أكثر بقليل وكأنها حدود عسكـريـة . ولم يكن يتجـاوز عرض الطـريق سـتـة أمتار . وقد بنيـت من حجارة مربعة سميكة مغطاة في بعض الأماكن بملاط إسفلتي أصبح مع مرور الأيام أقسى من الحجارة نفسها .

أمـا الطـريق الثانية فكانت تجتاز السهول التي تفصل جبال الأنـد عن المحيـط . وكـانت مبنية بطريقة مختلفة تماماً بحسب ما كانت تتطلبه طبيعة الأرض التي كانت بصفة عامة واطئة ورملية . وكانت الطريق عند

إنشائها تُرفع بركامات ترابية تدعم من طرفيها بحاجز من الطين. وعلى طرفي الطريق زرعوا الأشجار والدغلات ذات الرائحة الزكية لتمتع بشذاها أنوف المسافرين وتلطف من تعب الطريق بما تفيء من ظلال. وفي المناطق الصحراوية الرملية حيث الأرض خفيفة متحركة لا تستطيع أن تتحمل ثقل الطريق المعبدة كانت تغرز في الأرض كتل حجرية لتدل على الطريق التي ينبغي اتباعها.

وعلى طول هذه الطرق أقيمت خانات AUBERGES أو تامبو TAMBOS كما كانوا يسمونها على مسافات منتظمة تتراوح بين خمسة عشر وعشرين كيلومتراً لإيواء الإنكا بوجه خاص هو وحاشيته ولإيواء المسافرين بمهمات رسمية أيضاً. ولم يكن ثمة في الواقع من سبب للسفر في بر وإلا إذا كان الدافع مثل هذه الأعمال الرسمية. وكانت بعض هذه الأبنية ضخمة وتتألف من حصن ومخيمات ومنشآت عسكرية أخرى ويحيط بها جميعاً سور من الحجر يمتد على مسافة كبيرة. فهنا بدون شك كانت تقيم الجيوش الإمبراطورية عندما كانت تجتاز البلاد. وكانت المحافظة على هذه الطرقات تقع على عاتق المناطق الإدارية المجاورة حيث يعمل عدد كبير من العمال بصفة دائمة بإصلاحها، ولم يكن ذلك صعباً ولا معقداً على كل حال في بلد يسافر فيه الجميع على الأقدام.

وتدل الجسور المعلقة في البير وعلى إقدام وجرأة متناهيين. وكانت تبنى من ألياف المنغا والسوحر (نوع من الصفصاف) الشديدة المقاومة. فكانت ألياف السوحر تضم على شكل حبال ضخمة يصل سمكها إلى سمك جسد الانسان وترمى فوق الماء، ثم تُدخل نهاياتها في ثقوب منقورة في نواتىء صخرية على طرفي النهر وتربط ربطاً شديداً بكتل من الخشب الثقيل. وكان الجسر يتألف من عدد من هذه الحبال

الضخمة مربوطة بعضها مع بعض ومغطاة بألواح من الخشب ويحاصرها من الجانبين حاجزان من السوحر من أجل حماية المسافرين.

على هذه الطرق وبواسطة هذه الجسور كان البير يون يتواصلون دائماً وينقلون السلع من كل نوع. وعندما قام أحد المكتشفين الحديثين بتتبع بقايا هذه الطرق القديمة التي حافظت على بقائها محافظة حسنة تمكن وعلى غير توقع منه أن يكتشف أطلال مدينة رائعة محصنة هي مدينة ماتشو- بيتشو. ولندع المكتشف نفسه ـ الدكتور بينغهام ـ يروي لنا كيف تم ذلك:

«عندما تركنا حصن أولآنتايتامبو العتيق ونزلنا إلى الوادي على طريق حكومية بنيت حديثاً دخلنا في خانق جبلي غريب. . ولم يكن هذا الخانق يتمثل لنا فقط بقمم مكسوة بالثلج وأجراف من الغرانيت وغابة استوائية كثيفة جداً، وإنما أيضاً بآثار معمارية تركها لنا جنس قد أصبح في عداد الأموات. وفي كل مكان كانت تسمح به الأجراف كانت الأرض تمتد على مدرجات بين جدران الاستناد وبين النهر. ولم يتمكن قدماء السكان هنا أن ينتزعوا كل بوصة صالحة للزراعة من النهر إلا بعد لأي شديد. . وعلى صخرة ذات منحدرات شاقولية لا يمكن الوصول إليها كانت جدران محكمة من الحجر تقوي النقاط الضعيفة بحيث أن المدافعين عن الوادي يستطيعون من أعالي هذا النشز أن يدحرجوا كتلاً من الحجارة على المهاجمين دون أن يتعرضوا لأخطار الهجوم.

والطريق الذي تتبع في معظمها مخططاً قديماً كانت في بعض أجزائها محفورة بحفر عميقة وفي أماكن أخرى كان ينبغي المغامرة فوق بوارز هشة تستند إلى صخور شديدة الانحدار. . وقد وجب علينا أن نتسلق عبر غابة وعرة ثم فوق سفح يكاد يكون شاقولياً. وباستثناء كوخ وبعض المدرجات المدعومة بجدران من الحجارة لم يكن في الوهلة

الأولى أي أثر للخرائب . ولكننا بعد أن نلنا بعض الراحة تقدمنا حتى حافة القمة» .

وعندئذ ، وبعد أن كاد المسافرون يفقدون أي أمل ، شاهدوا في وسط إحدى الغابات الاستوائية وفي ظل أشجارها بقية جدران عتيقة وأنقاضاً على شكل كتل من الغرانيت سوي بعضها بعناية فائقة كمثيلاتها من تحف البناء التي خلفتها حضارة الإنكا . وهكذا اكتشف هؤلاء الرحالة ماتشو ـ بيتشو مدينة الغيوم الحقيقية .

فما هو الدور الذي لعبته هذه المدينة المنيعة؟ . لقد كانت بصورة خاصة مكاناً للاعتصام محصناً من العدو من أية ناحية أتيته . وقد يمكن مع ذلك أن تكون وراءه قصة رومانسية أو أن يكون مهداً لامبراطورية الإنكا . والواقع أن هذا المهد كما وصلتنا أخباره من رواية شفهية قديمة كان يقع في أحد خوانق الأند المنيعة في مكان يسمى «مسكن النوافذ» . والنوافذ هي الملامح الأساسية في هندسة بناء هذه المدينة ، أفليس من الممكن أن تكون ماتشو ـ بيتشو إذن مجرد اسم آخر أطلق على مدينة «مسكن النوافذ» المقدسة؟ . على أن من العبث في الوقت الحاضر أن نصل إلى حل في هذه المشكلة الغامضة ، والنقطة المؤكدة هي أن نمط بناء ماتشو ـ بيتشو هو من الإنكا على الرغم من وجود بعض الاختلافات بينه وبين نمط كوزكو والمناطق الأخرى النموذجية من أبنية الإنكا . ومن البديهي أن الإنكا لا بد مروا هنا قبل أن تقوم امبراطوريتهم ، وربما كان ذلك في عصر لم يكونوا يحلمون فيه بعد بالإنجازات الكبرى التي سيكونون من صناعها .

تلك هي حكومة الإنكا في خطوطها الرئيسية . ومن أجل ان نتم اللوحة بقي علينا أن نصف كيف كانت أرض العدو بعد الفتح تدمج في الإمبراطورية الفاتحة . ولنبدأ بالناحية الدينية . فقد كانوا يدخلون عبادة

الشمس ويقيمون لها المعابد ويعهدون بها إلى طبقة من رجال الدين ذات عدد كبير تقع على عاتقها مهمة الدعوة إلى الدين الجديد بين الشعوب المغلوبة. والتدبير الثاني ديني أيضاً. فقد كانت صور آلهة الشعوب المغلوبة ترسل إلى كوزكو حيث توضع في المعابد ويستطيع كل انسان أن يقدم لها الاحترام على أساس أنها آلهة أدنى. وبعد ذلك كانوا يقومون باحصاء للسكان ويجرون للمنطقة دراسة اقتصادية. وكانت البلاد تقسم بحسب مبادىء مطبقة في جميع أنحاء المملكة. إلا أنه مهما كان شأن التغيرات التي تدخل على الشكل القديم فان الثروات تبقى دائماً في ايدي الملاكين القدماء، كما تبقى العادات القديمة والقوانين التي كانت سائدة لدى الشعوب المغلوبة بصورة عامة دون مساس.

أما إذا كان الأمر يتعلق بمنطقة أخضعت وظنوا أنها ما زالت تحمل لهم الكراهية والعداء فانهم كانوايلجؤون إلى نظام فيه شيء من القسوة. فكانوا ينقلون الآلاف من سكانها إلى مكان بعيد من المملكة يشعرون فيه أنهم غرباء تماماً وبحيث أن الحسد والبغضاء المتبادلين تقضي على كل محاولة للتمرد. وكانت هذه المستعمرات الأجنبية تلعب دوراً هاماً في حياة الإنكا الاجتماعية. وفي هذه المستعمرات كان يوجد ثلاث فئات، أفراد الفئة الأولى كان يعملون في الزراعة خاصة ثم في الصناعة، وكان عليهم أن يهتموا بالدرجة الأولى بتأمين حاجات جيوش الإنكا التي هي جيوش الشمس، على أنه كان يوجد بينهم نساجون وصاغة ونحاتون وصانعو أصنام وقالعو حجارة. أما أفراد الفئة الثانية فكانوا يخدمون في مختلف الحاميات الموزعة في البلاد. وأما أفراد الفئة الثالثة فكانوا مستعمرين COLONS (أي أنهم كانوا يخصصون لاستعمار أراض جديدة). وكان انتقاؤهم يتم بكل عناية دون أن يكلفوا بما يرهقهم من الأعباء. وكانوا ينقلون دائماً إلى وديان خصبة لم

تكن مأهولة من قبل. وكان الرؤساء يحرصون دائماً على أن يُنقل هؤلاء المستعمرون الذين تم انتقاؤهم من أفراد الشعب المغلوب إلى مناخ مشابه للمناخ الذي كانوا قد اعتادوا عليه. وكانت المنطقة الجديدة تقسم بين هؤلاء المستعمرين وتقدم لهم القطعان والمؤن التي يمكن أن تكفيهم حتى يتمكنوا من جني محاصيلهم. ومن أجل أن يخففوا من حظهم العاثر بقدر المستطاع فإنهم كانوا يعفونهم من الضريبة خلال عدد من السنين.

وأخيراً، فمن أجل ألا يتعرض نظام الإدماج الذي كانوا يطبقونه لأي فشل كان الإنكا يجبرون رؤساء العائلات من الشعوب المغلوبة على الإقامة في كوزكو ويحرصون على تعليمهم لغة العاصمة وعادات أسيادهم الجدد فيتمتعون بذلك بامتياز أنهم مقبولون في البلاط وأنهم يعيشون في جو من البذخ الذي كان يحيط بالسلطان. وكانت اللغة الرسمية تفرض فرضاً قاطعاً على الشعب المغلوب، ومن أجل هذه الغاية كان المعلمون يرسلون إلى كل القرى والمدن في المناطق المفتوحة.

على أنه مهما كان رائعاً نموذجُ التنظيم الاجتماعي الذي لجأ إليه الإنكا فاننا لا نجهل أن ادعاءاتهم بأصالته فيهم لم يقم عليها دليل وأنها إنما تقوم على أساس من تبجحهم كفاتحين. كما أن الإنكا في كل مجالات الفنون أيضاً كانوا مستعيرين أو مقلدين تقليداً غير ناضج في أفضل الحالات، بحيث أن ما أقاموه من أعمال فنية لا يقوى على الصمود في وجه ما أقامه أسلافهم الكبار، أي في وجه الحضارات التي امتدت من برزخ باناما حتى شمالي شيلي.

والنموذجان الأكثر أهمية من فنهم في البناء والنحت ربما كان أولهما الباب والمسلات الحجرية الضخمة التي وجدت في تياهواناكو في الطرف الجنوبي من بحيرة تيتيكاكا، وثانيهما المسلة التي يلحقونها بحصن شافان

دي هوانتار الوطني البعيد إلى الشمال من تياهواناكوا. والأفاريز المنحوتة على مسلات تياهواناكوليس لها مثيل في كل أمريكا، فواحد من الوجوه المنحوتة عليها يثير انتباهاً خاصاً لأنه يمثل شكلاً انسانياً ذا ساقين مختصرين ورأس محاط بأشعة محددة بدوائر وبروز وس لأسود أمريكية، وأطراف قميصه وأكمامه مزينة هي الأخرى برؤوس لهذه الأسود، ويحمل على صدره زينة لها شكل حيواني مقوس على شكل هلال، ويمسك في كل واحدة من يديه عصا نُحت طرفها على شكل رأس نسر أمريكي CONDOR

ويقدم لنا جويس العالم المعروف والمختص في موضوع الأركيولوجيا البيريّة وصفاً لائقاً لهذه المسلات الحجرية فيقول: «تبعد المسلات الكبرى في وضعها الحالي خمسة أمتار بعضها عن بعض وتذكرنا بالدوائر الحجرية الموجودة في أوروبا. ومع ذلك فان التنقيبات الحديثة أظهرت أنها كانت مرتبطة مع بعضها بجدار من الحجارة الكبيرة التي لم يكن يربط ما بينها ملاط، وأنهم كانوا يجتازون هذا الجدار إلى الداخل عن طريق سلّم ذي درجات حجرية يقع في وسط الجانب الشرقي. وفي داخل هذا المكان المسوّر يوجد منخفض في الباحة مستطيل الشكل هو الذي يؤدي هذا السلم إليه. وأمامه إلى الشرق من الباحة الكبرى يوجد مكان مسور آخر أصغر حجماً ومبني على الطريقة نفسها ولكن مع رؤوس بشعة منحوتة بشكل بارز على الأعمدة التي تسند الجدار. وإلى الغرب من الباحة الكبرى يوجد مكان مسور ثالث متوسط الحجم له جدار مزدوج. وفي الزاوية الشمالية الغربية منه يرتفع بناء صغير ذو ثلاث مقصورات صغيرة تشبه صوامع الرهبان. ثم يأتي أخيراً مكانان مسوران آخران أصغر حجماً ومجهزان بأقنية حجرية..

وفي الزاوية الشمالية الغربية من الباحة الكبرى يرتفع الباب الحجري الشهير الذي يعتبر أعظم الأبنية الأثرية في كل أمريكا القديمة».

أما في ميدان النحت وأشغال الذهب والنحاس والبرونز والفخار والنسيج فان المستوى الفني ينخفض بدخول الإنكا إلى مسرح الحضارة. وكل ما سيأتي في الصفحات التالية ويمت إلى فن البيرو فإنما يعود إلى الحضارات السابقة للإنكا أكثر مما ينطبق على إبداع الإنكا الذين ورثوا هذه الحضارات.

ولقد كان النحاس هو الأكثر استعمالاً بين المعادن. وكانوا يصنعون منه كل الأشياء وبخاصة الأدوات الكثيرة الاستعمال. وقد عرفوا البرونز وصنعوه بإضافة كميات مختلفة من القصدير إلى النحاس. ولكن أجمل ما صنعوه من البرونز أو النحاس من أدوات جميلة بدت، سواء في مهارة صناعتها أو في تزيينباتها، هزيلة إلى جانب ما صنعوه من الذهب أو الفضة. وقد استخرج المنقبون في هذه السنوات الأخيرة من المقابر كثيراً من الأشياء الذهبية كان من بينها ما يحتوي على أربعين ليبرة من الذهب وآخر على مائتين وثالث على أربعمائة. وكانت هذه الأشياء على أشكال تحقق كل ما يتصوره الخيال من أقراص وحلق للآذان وأساور وأجراس وتيجان وتروس ومزامير ذات أنواع مختلفة وخواتم دائرية وأوان نصف كروية وأوعية من مختلف الحجوم. وقد وصف لنا العالم الفرنسي الشهير بول ريفي واحدة من هذه المصنوعات المدهشة فقال:

«برز لنا على أرض القبر هيكل عظمي وجدنا عليه كمية كبيرة من صفائح الذهب والفضة كانت تتناوب بانتظام كامل بحيث بدا لنا أنها كانت مثبتة بدون أي ظل من الشك على رداء ألقي فوق جسد هذا الميت. ولا بد أن قطع هذا الرداء نفسه كانت هي الأخرى مصنوعة من

قطع صغيرة من الذهب. وفي المدخل تم اكتشاف حزمة كبيرة من قضبان صنعت من خشب الشونتا مكفتة ومغطاة برقائق من الذهب والفضة. ومن أجل أن تغلق فتحة القبر تماماً وضعت هذه الحزمة بشكل عمودي متناوبة مع أربع حزم أخرى دائرية الشكل اثنتان منها من الذهب واثنتان من الفضة ويتراوح سمكها ما بين أربعين إلى خمسين سنتيمتراً. وخلف الهيكل العظمي كان يوجد كنز حقيقي مؤلف من دبابيس وبلطات ومزامير وتماثيل صغيرة وكل ذلك من الذهب. وأكثر الأشياء روعة كان ريشة صنع أنبوبها من الذهب وأهدابها من الفضة».

وفي قبر آخر وجدت صفيحة واقية للصدر من الذهب عليها كثير من الزينات. أما سطحها فمحدب بارتفاع أكثر من سنتيمتر، وأما حافتها فملساء تبرز من أحد جوانبها صفيحة دائرية صغيرة يربطها بـ الملك بثلاث حلقات مفرغة.

وقد استغرق الفاتحون الاسبانيون استغراقاً كاملاً في إذابة ما حصلوا عليه من تحف وأصابهم مس لكثرة ما حسبوا أثمانها بالنسبة للمعايير الأوروبية حتى أنهم لم يتركوا لنا وصفاً مفصلاً لكل ما وصل اليهم من هذه التحف. ومع ذلك وصلت إلينا بعض التفاصيل. فقد رأى المؤرخ أوفييدو عدداً من هذه الآنية الرائعة الصنع والمرصعة بكثرة بذهب صاف والتي يبلغ ارتفاعها ثلاثين سنتيمتراً ومحيطها خمسة وسبعين. وهنالك مؤرخون آخرون ذكروا أقداحاً وأباريق وأطباقاً وحلياً ومواعين للمعابد والقصور الملكية وآجراً وصفائح لتزيين المباني العامة وتقليدات للنباتات والحيوانات. وإليك وصفاً جميلاً لعرنوس من الذرة الصفراء: كان العرنوس نفسه من الذهب كله، وكان مغطى بأوراق عريضة من الفضة تخرج منها حزمة جميلة من الخيوط المصنوعة هي الأخرى من الفضة أيضاً. ويدعي البعض - وربما كانوا يقولون الحق -

أنهم رأوا بركة ماء مصنوعة من الذهب تنبثق منها حزمة ذهبية لامعة تمثل الماء بينما تلعب في قاعها طيور وحيوانات صيغت من المعدن نفسه.

ومع ذلك فإن سكان بيرو القدماء إنما وصلوا إلى الكمال في فن الخزف والنسيج وفي هذا المجال بوجه خاص عرفوا واشتهروا. والأشياء المختلفة التي يمكن ترتيبها بحسب درجة قدمها تنبىء عن اختلافات مميزة في الأسلوب تبعاً للعصور المختلفة التي صنعت فيها. فالأسلوب المسمى بأسلوب تياهواناكو يتميز بتزييناته المرسومة التي تستعمل الكثير من الألوان. وهناك أسلوب قريب من أسلوب تياهواناكو ولكنه يختلف عنه بألوان الآنية وبخاصة الأحمر والأبيض والأسود. وأخيراً يأتي عصر الخزف الأسود الذي يتفوق بصنعته ولكنه يبقى بما لا يدع مجالاً للشك أدنى من حيث انجازه الفني. وأخيراً يأتي عصر الإنكا.

وكان كل من هذه الأساليب يميل إلى معالجة بعض المواضيع ويفضلها على غيرها. ولكننا إذا اعتبرنا مجموع الخزف البيريّ فاننا نستطيع أن نؤكد أن هذا الفن قلما تفوقت عليه فنون شعوب أخرى بما في ذلك الإغريق والصينيون فيما يتعلق باتقان العمل الفني وتنوع المواضيع وأصالتها، بل ربما لم يتفوق عليه قط فن واحد من هذه الشعوب. يضاف إلى ذلك أنه يرسم لنا لوحة كاملة للحضارة البيرية القديمة، فكل نبات وكل حيوان وكل نموذج للثياب أو السكنى أو الزينات أو أنماط المعيشة المختلفة وكل التفاصيل المرتبطة بالطقوس والآلهة وحتى الأمراض، كل ذلك تم تمثيله إما نافراً أو مرسوماً.

ونحن نعتقد من وجهة نظرنا أن الأمثلة الأكثر أهمية هي بطبيعة الحال تلك التي تمثل مشاهد من الحياة البيريّة. ويقدم لنا أحد الآنية تمثيلاً لتضحية فيرينا الكاهن ومساعديه والضحية مع شخصية تجلس القرفصاء إلى اليمين. ويرينا إناء آخر عبداً أعمى ذا جسد مشوه يلعب

على الطبلة بينما يرقص أولئك الذين سجنوه على نغم آلة صوتية. وعلى إناء آخر أيضاً نرى حبلاً من الناس قدموا لتقديم احترامهم للإنكا، وقد مُثّل هذا جالساً في بيت مبني على طبقات بينما يصعد السلالم ساعيان يتبعهما شخص ربما كان زعيم قبيلة مغلوبة. وهناك شخص آخر أدنى منه مرتبة بلا شك يتبعه على محفة ذات حامل عادي. بينما الرتبة الأدنى من الزعيم الثالث قد مُيزت بحبل كان يحمله صاحب الرتبة هذا حول عنقه. وعلى إناء رابع مُثّل مشهد صيد حيث اجتُذب الأيل إلى شبكة أخذوا يقتلونه فيها بواسطة هراوات وحراب. وأخيراً من أجل أن نعطي فكرة عن تنوع هذه المواضيع لابد أن ننوه بوعاء يمكن أن نميز عليه نباتات من الأسل مع جذورها بينما تسبح الأسماك بين هذه الأسلات وتحلق فوقها الطيور.

وتقدم لنا هذه الآنية تنوعاً في الأشكال أيضاً. وأكثرها لفتاً للنظر تلك (الآنية ـ اللوحات) التي لا يحصى لها عدد. فهي تعطينا فكرة حية جداً عن عصر هؤلاء الناس بدءاً من الإنكا والنبلاء حتى آخر واحد من العبيد. وعلى هذه الآنية لم يهمَل وجه واحد من أوجه الحياة التي كان يعيشها هؤلاء الناس. فهنا وهناك يمكننا أن نلاحظ حتى مشاهد من الجراحة والطب الوطنيين منها مشهد لرجل مبتورة مع غطاء يستر ما بقي منها بعد القطع، أو مشهد رجل يتفحص أخمص قدمه بعد أن استخرجت منه بعض البثور.

والكمال الذي وصل إليه البيريون في فن النسيج ربما كان أدعى إلى الدهشة أيضاً. ونحن لسنا هنا فقط أمام تطور خارق في هذا الفن بالنسبة لما نعرفه عنه لدى شعوب ما قبل التاريخ وإنما نحن هنا أيضاً أمام تناغم الألوان وجمال الصباغة ونوعها وأخيراً كمال الغزل والنسج مما يجعل هذه الأنسجة على مستوى يمكن معه مقارنتها بمثيلاتها من

الأنسجة التي تنتجها شعوب أوروبا أو آسيا. ويبدو أنهم في العصور الأولى لم يكونوا يتقنون هذه المهنة. فقد كانوا يشدون السداة في إطار بينما كانت خيوط اللحمة تؤخذ باليد بواسطة إبر خشبية يمر من كل منها خيط ذو لون مختلف، وهكذا كانت الزينة في خطوطها الرئيسية تتوافق مع اللحمة والسداة وتتألف من أرضيات مختلفة الألوان. ثم عرفوا بعد ذلك طرائق مختلفة للتزيين، كأن يطرزوا النسيج بعد نسجه، أو أن يرسموا عليه، أو أن يغمسوه في مادة تلوينية بعد أن يربطوا بعض أجزائه كي لا تنفذ إليها المادة الملونة. وفي مرات أخرى كانت الألبسة تتألف من مجموعة من القطع صُبغت كل منها على حدة بحيث يتألف من مجموعها نماذج متناسقة.

أما المواضيع التي صورت على هذه الأنسجة فهي أقل تنويعاً مما رسم على المصنوعات الخزفية. وبصورة عامة كان الأمر يتعلق بمواضيع هندسية أو ذات أشكال حيوانية على أننا نجد في بعضها مشاهد من الحياة اليومية.

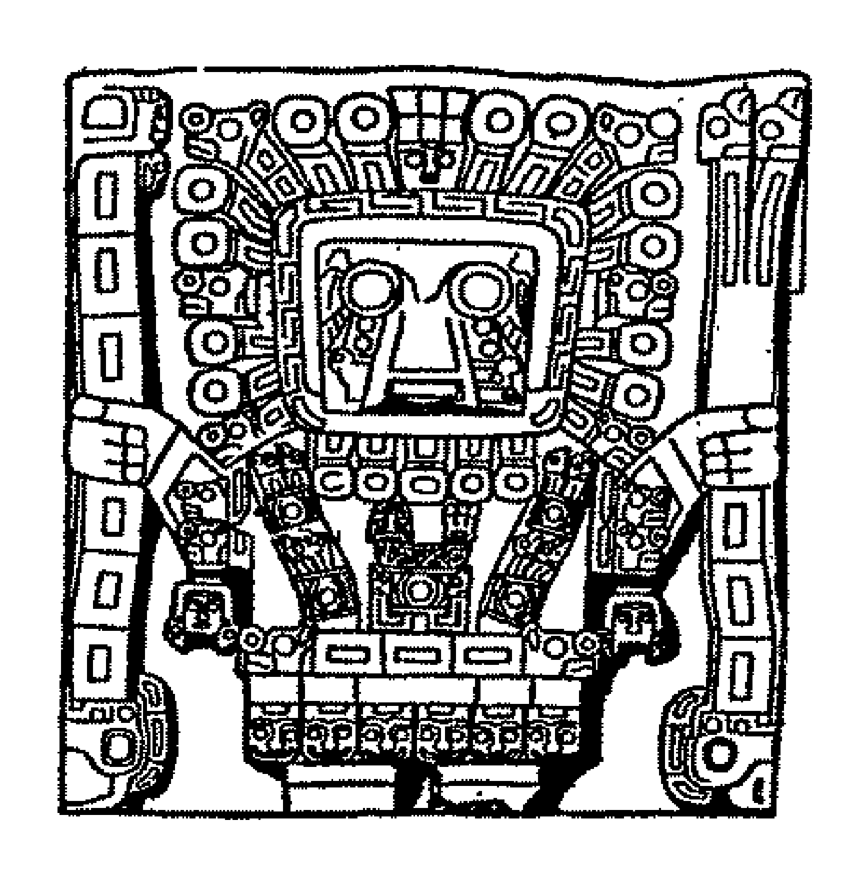
ويبقى لنا بعد ذلك أن نشير إلى عادة بربرية أخيرة كانت واسعة الانتشار هي عادة تحنيط الموتى. فقد كان قدماء الإنكا يتصورون فيما وراء القبر حياة كاملة كما كان يفعل قدماء المصريين. فكانوا يضعون مع الميت أغذية وملابس وأنسجة وأسلحة حتى أنهم كانوا يضعون معه الحيوانات المفضلة لديه في حياته. وكان النبلاء وأفراد الطبقة العليا يأخذون معهم زوجاتهم المفضلات وعدداً من الخدم كانوا يدفنون معهم ساعة الدفن. وكانت الجثة بصورة عامة تُعد لهذا المصير على عدة طرائق، وبعد أن تنزع منها الأعضاء الداخلية كانت توضع في القبر في وضعية القرفصاء وعليها كمية سميكة من الأنسجة ثم تغطى بغطاء رقيق من نسيج قطني وأخيراً يغطى الجميع بحصير محكمة الشد بواسطة

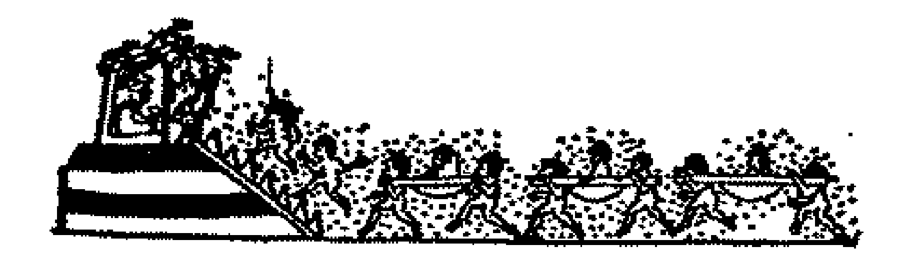
خيط. وكانت موميات ملوك الإنكا تحفظ في كوزكو في معبد الشمس وتوضع على كراسٍ ذهبية على طول الجدران بحيث تكون كلها في مواجهة صورة الشمس. وعلى الرغم من أنها سُرقت سراً أثناء الفتح إلا أنها اكتشفت في النهاية. وقد كتب كارسيلاسّو واصفاً: «لقد كانت الأجساد في حالتها الكاملة حتى أنها كانت لا تزال تحتفظ بالشعر والحواجب والأجفان. وكانت لا تزال تلبس الملابس التي كانت قد ارتدتها في حياتها، ولم تتباهَ - باستثناء التاج على الرأس - بأية شارة من شارات الملك. وكانت في وضعية الجلوس، الذراعان مشبكان على الصدر، الأيمنَ منهما فوق الأيسر، والعينان مطاطئتان وكأنهما تنظران إلى الأرض».

وكما كان الأمر مع الأزتك فإن الإنكا استعاروا أكثر من عنصر ثقافي من أسلافهم تاركين إياه في معظم الأحوال ليفسد دون أن يصلحوه أو يحسنوا من أمره. ومع ذلك فإن اسم الإنكا كان براقاً لدرجة أن الأركيولوجيين لم يتمكنوا أن يثبتوا إلا أخيراً وبشكل رسمي كيف كان قليلاً حقُّ الإنكا في معظم التحف الفنية التي نسبت إليهم. فنحن نعرف الآن سلسلة المراحل الثقافية الطويلة التي مرت على بيرو القديمة. وثمة نقطة أكثر أهمية من ذلك أيضاً هي أننا نستطيع حالياً أن نحدد المؤثرات المتبادلة التي مارستها كل من حضارتي المايا والإنكا احداهما في الأخرى. وعلى الرغم ان من الخطأ الادعاء بأن الحضارات الكبرى التي ازدهرت على ساحل المحيط الهادي من أمريكا الجنوبية إنما استمدت أصولها من مؤثرات مكسيكية فإن من المؤكد مع ذلك أن المراحل الأكثر قدماً من هذه الحضارات إنما تعدلت بتأثير من هذا الاتجاه وأن هذه المؤثرات يبدو أنها كانت أقوى وأكثر دواماً في الإكوادور منها في المناطق التي تمتد إلى الجنوب من ذلك.

ومع ذلك فثمة عنصر بقي ثابتا خلال كل هذه المراحل هو عبادة الشمس والصفة المقدسة للإنكا ابن الشمس. ولذلك كان الابتهال الذي يرفعه كاهن الشمس خلال احتفالات آب أغسطس الكبرى في مدينة كوزكو، كانت صلاة موجهة في آن واحد من المغلوبين والمنتصرين، من العبيد والنبلاء، وكانت قديمة جدا تعود بالتأكيد إلى أكثر من ألف عام:

أيها الخالق! يا ويراكوشا، أيها المنتصر الكلي الوجود.
أنت يا من لا نظير لك، يا من تسيطر على أقدار الأرض.
أنت يا من أعطيت للرجل حياته وقيمته وأنت تقول:
فليكن هذا رجلاً
وللأنثى تقول:
فلتكن هذه امرأة
أنت يا من خلقتها وأعطيتها الوجود،
أنت يا من تقيم في علياك هنالك في السماوات،
بين غيوم العاصفة،
امنحها حياة طويلة
واقبل هذه التضحية
أيها الإله الخالق العظيم.





الفصل الخامس

المكسيكيون يفتحون أمريكا الشمالية

عندما ألقى الجنرال وينفيلد سكوت مراسيه في فيراكروز أثناء حرب المكسيك ومشى إلى مدينة مكسيكو فإنه تبع الطريق نفسها التي كان قد تبعها كورتيز قبل ذلك بثلاثة قرون. وكان كورتيز قد قدم من كوبا، ومن توباسكو التي تقع على مسافة قريبة من ميناء بويرتو مكسيكو الصغيرة الحالي تبع الشاطيء حتى المكان الذي بنى فيه هو نفسه مرفأ فيراكروز. ولم يكن هو أول من استخدم هذه الطرقات الوطنية، ففي نحو من عام ١٠٠ ق.م، أي قبل قرون عديدة من زمنه، كانت قد مرت جيوش الغزاة القادمين من يوكاتان وغواتيمالا وشيابا وعن هذه الطرق وصل المايا بدورهم أيضاً.

ولقد كان المايا في كل العصور جنساً قلقاً لا يستقر له قرار إذ طالما هجروا في بلادهم نفسها غواتيمالا ويوكاتان المدينة تلو الأخرى. وعلى الرغم من اننا لا نستطيع بطبيعة الحال أن نعزو ذلك إلى سبب وحيد فإنه من المحتمل ـ إذا ما استطعنا ان نخترق حجب الظلام التي تخفي

تاريخ المايا القديم - أن نتوصل إلى سبب أصبح اليوم واضحاً هو أن شعوبا همجية كانت تضغط عليهم من كل الجهات وتهاجمهم عند كل فرصة تسنح لها وتمتصهم شيئاً فشيئاً. ومن المعروف أن أعلى أشكال الحضارة لم تستطع قط أن تصمد أمام عدوين مميتين هما الهمج والغابة العذراء. وكان المايا أقل من غيرهم كفاءة في مجال الدفاع، ذلك لأنهم على تقدمهم في مجال الفن وبعض العلوم فإن حضارتهم كانت تشكو من نقيصتين أساسيتين هما أولاً فقدان الوحدة والترابط السياسيين وثانيا المركزية المشؤومة التي كانت تعاني منها كل المعارف بربطها ربطاً ضيقا بطبقة الكهنوت.

ولكن إذا انتهى الامر بالغابات والبرابرة الهمجيين إلى أن يوقفوا فجأة حضارة المايا فإنهم لم يتمكنوا من تدميرها تدميراً كاملاً. ذلك لأنه كان من الممكن أن يتخلص المايا من تأثير الغابة، كما أن البرابرة كان لابد من أن يفقدوا همجيتهم بشعورهم بدفء هذه الثقافة العالية، وهكذا كان لهذه الحضارة بدورها طريقتها الخاصة في مهاجمة خصومها الوراثيين. فعندما تبقى المعركة المباشرة خاسرة يمكن اللجوء الى اختراق بطيء وعتيد لصفوف الأعداء، ذلك لأن الدفاع الحازم والطويل المدى سيكون في حد ذاته نوعاً الهجوم. وعندما دارت الدائرة في النهاية على المايا، وأصبحت اللعبة خاسرة تماماً فإن حضارتهم رزحت تحت وطأة القبائل البربرية، ولكنها كانت قد نفذت إليهم وامتصوا جزءاً كبيرا من إرثها الثقافي.

ولكي نفهم كيف تمكن المايا من فتح المكسيك ثم الولايات المتحدة الامريكية فإن علينا أن نعرف أولاً كيف تمكنوا من مقاومة الغابة ثم بأية صورة لعبوا دور الخميرة بين البرابرة الذين كانوا يحيطون بهم مدعومين في بعض الأحيان بالحظ لدى قيامهم بهجوم مباشر.

وما ان وصلوا الى ساحل خليج المكسيك حتى تمتعوا بأمان نسبي، فليس من المستغرب إذن أن يحاولوا بلوغ هذا الشريط الضيق من الأرض الذي نسميه برزخ تيهوانتيبيك. وكان بإمكانهم أن يبلغوه عن طريقين، فإما بالتوغل في المناطق المدارية الجبلية كمنطقة شيابا وإما بالتوجه مباشرة نحو الخليج وهو الطريق الأسهل كثيراً بين الطريقين. فوجود لغة المايا المسماة هو اكستيك بعيداً إلى الشمال من فيراكروز ليس إذن أمراً مدهشاً، ولكن ثقافة المايا كما عرفناها في يوكاتان وغواتيمالا قد تعدلت آنذاك كثيراً إلا إذا كان الهواكستيك يمثلون مرحلة قديمة من مراحل حضارة المايا. ويبدو أن النظرية الأولى هي الأقرب الى الصحة لأننا نشهد تفككاً حقيقياً في عناصر المايا كلما ابتعدنا عن يوكاتان الشمالية وتقدمنا نحو تاباسكو وفيراكروز، وكانت تزدهر الى الجنوب قليلا من الهواكستيك فيما مضى حضارة التوتوناك التي تظهر تشابهات عميقة مع حضارة المايا. وكانت لغة التوتوناك إما لهجة من لهجات المايا عُدّلت كثيراً وإما لغة أخرى مختلفة ولكنها تبنت الكثير من مفردات المايا.

وهكذا يمكننا أن نعتبر أن هجوم المايا المباشر نجح غالباً حتى فيراكروز في الشمال. فهل كان ذلك بفضل غياب الأعداء أمامهم أو لأن مقاومة هؤلاء كانت غير مجدية؟. إننا نجهل الجواب على ذلك. وكل ما نعرفه أن المايا الذين استقروا هناك أنشؤوا مدناً وحافظوا على لغتهم وعلى العناصر الأقل هشاشة من إرثهم الثقافي القديم. أما الكتابة الهيرغليفية وأما المدن الرائعة مع مبانيها العامة ومعابدها الفاخرة ومسلاتها الحجرية فقد اختفت كلها إلى الأبد. وأما زراعة الذرة مع كل نتائجها، والديانة القديمة والأساطير العتيقة والاطار الاجتماعي القديم فقد بقيت كلها سليمة دون مساس.

ومع ذلك فإن الآثار لا تلبث أن تنقطع فجأة إلى الشمال من فيراكروز، فماذا حدث؟.

هل أصبح ضغط القبائل البربرية قوياً جداً أو أن هؤلاء دمروا كل شيء؟.

إن معظم المؤرخين يفضلون تجنب هذه المشكلة وترك المسألة معلقة دون جواب. وربما كان تصرفهم هذا تصرف العاقلين. ولكن يبدو أنهم ضلوا مع ذلك وراء أثر خاطىء في بحثهم عن امتداد هذه المؤثرات الأولى للمايا في المنطقة التي تمتد إلى الشمال من فيراكروز واستحوذت عليهم فكرة خاطئة بتتبع آثار هذه الحضارة على الطرق البرية الموجودة هناك. أما الآن وبعد أن كشفت المناطق الممتدة بين فيراكروز وغالفستون كشفاً جغرافياً كاملاً أصبحنا نعرف أنه ليس بمقدور أحد أن يخترقها وأن يجتازها. فمن أجل أن نمر الآن من تامبيكو أو فيراكروز الى غالفستون واورلئان الجديدة لا بد لنا من استعمال المراكب. ويبدو أن سكان فيراكروز القدماء كانوا يفعلون مثلنا. والواقع أن الآثار التي انقطعت فجأة الى الشمال من فيراكروز لا تلبث أن تظهر على القسم الأدنى من الميسيسيبي، فعلى هذا النهر الكبير وعلى الضفة الشرقية منه بوجه أخص وحتى الأطلسي يتفتح كل ما كان موجوداً من حضارة المايا الى الشمال من ريوغراند. ويمكننا أن نسمي هذه الشعوب هنا باسم بناة «الماوند»(*). وعلى الرغم من أن ثقافة هؤلاء الأخيرين تشير الى تقهقر ملموس عما عرفه الهواكستيك فإن

(*) ـ الماوند MOUNDS هي التلال الاصطناعية التي تخفي تحتها آثار حضارة قديمة.
المترجم

مجرد وجودها هنا هو أمر معجز. وقد لعبت الذرة دائما دورا من الطراز الأول، وبني العديد من الاهرامات، أما الآلهة فعلى الرغم من أن أوصافهم تراخت بعض الشيء فقد بقوافي جوهرهم كما كانوا ولم يتبدل التنظيم الاجتماعي في خطوطه الكبرى قط.

وهكذا أتت من البحر أول غزوة عرفتها الولايات المتحدة وتوغلت عن طريق المسيسيبي أبي الأنهار المهيب. فالماء لعب إذن في هذه الغزوة دوراً مدهشاً. والواقع أن حضارة المايا التي وصلت الى الولايات المتحدة تعدلت كثيراً باجتيازها خليج المكسيك، وقد أثر هذا التعديل بشكل لامراء فيها في كل الحضارة الوطنية الى الشمال من ريوغراند.

ولكن لنعد الى القسم من المايا الذين فضلوا السبيل البري تحدوهم رغبة في أن يصلوا عن طريقه إلى ساحل الأطلسي. فهنا لا بد أن الغزوات قد بدأت في عصر مبكر وكانت مستمرة ودؤوبة. ولاشك أن أوائلها قد تمت على نطاق واسع، ذلك لأنها على الرغم من عدم نجاحها في فرض لغة المايا فإنها كادت أن تنشر كل مظاهر ثقافتهم بما في ذلك كتابتهم الهيروغليفية التي تغيرت وفسدت خلال الطريق إلى حد بعيد. ولقد حدث أننا عرفنا جيداً هذه المرحلة من تقدمهم نحو الشمال لأنها أرست قواعد حضارة هامة هي حضارة الزابوتيك ZAPOTEQUES والميكستيك MIXTÈQUES في ولاية واكاكا OAXACA الى الجنوب من المكسيك.

ولقد كادت حضارة هذه الشعوب أن تكون تيوقراطية تماماً كما كانت حضارة المايا. فقد كان للميكستيك كاهن أكبر كانت سلطته مساوية لسلطة الملك. وكانت هذه الوظيفة الوراثية تسند دائماً الى بعض أفراد العائلة المالكة. وكان الكهنة يخضعون لرهبانية شديدة

بحيث كانوا طوال هذه الحقبة يحافظون على عذرية مطلقة إلى أبعد الحدود. أما الكهنة العاديون فكانوا يستطيعون الزواج بعد أربع سنوات من بدء دخولهم في السلك، وكان يسمح لمن يشاء منهم بأن يحتفظ بحياة الرهبنة إذا رغب بذلك، ومن بين هؤلاء الأخيرين كان يتم اختيار أصحاب المقامات الرفيعة الذين كانوا يحيطون بالملك، وكان المرشح لوراثة العرش نفسه خاضعاً لأن يمر بهذه الرهبنة.

وكان الملك وكبير الكهنة يحنطان بعد الموت ويدفن جسداهما في كهوف مقدسة يوجد منها أعداد كبيرة في بلاد الهواكستيك HUAXTÈQUES . وكانت هذه المومياءات توضع على مصاطب حجرية منحوتة في الصخر، كما كانت الأضرحة تضم أيضاً في مكان منها تماثيل الإله الحامي للملك وللكاهن الكبير.

أما لدى الزابوتيك فالملك كان هو الكاهن الأكبر والسلطان في الوقت نفسه. وقد أخبرنا مؤلف قديم بأن الاحترام الذي يكنونه له كان كبيراً لدرجة أنهم لم يكونوا يتركون قدميه تمسان الأرض قط. واذا اعترض بعض الناس طريقه مصادفة فإنهم كانوا يرمون بأنفسهم على الأرض حالاً لأنهم كانوا يفضلون الموت عن أن يروا مجرد ظل جلالته. أما كبار الدولة أنفسهم فكانوا في حضرته يغضون الطرف إلى الأرض وهم مكشوفو الرؤوس.

وكان للزابوتيك نسقان من الكهنة الأعلى منهما يقتصر المنتمون إليه في الظاهر إلى طبقة النبلاء والأدنى الذي يضم الكثيرين من الطبقات الأدنى. وربما كان أكثر هؤلاء الكهنة الصغار أهمية هم المكلفين بالعرافة وتفسير النبوءات. وكانت أساليب العرافة كثيرة ومتنوعة، فمنها ما كان عن طريق النار أو الماء أو زجر الطيور أو أحشاء الحيوانات التي تمت تضحيتها... الخ، وبعض الكهنة كانوا

يتمسكون بتقشف كامل ويمضون حياتهم في الوحدة والتأمل عائشين في أكواخ خشنة ويسحبون الدم من أجسادهم ليقدموه إلى آلهتهم الخاصة.

وقد قسمت البلاد عند الميكستيك والزابوتيك الى أقسام إدارية يحكمها رؤساء ثانويون يرتبطون مباشرة بالملك ويقدمون له الجزية. والأرض التي لم يكن لأحد أن يتصرف بها انتلقت ملكيتها الى سلالات من الذكور وصار الأقنان يعملون عليها تحت رقابة مباشرة من موظفين خصوصيين. أما التجار فقد كانوا يشكلون ـ كما هو أمرهم في أمريكا الوسطى والمكسيك ـ طبقة مميزة تحتل مكانتها الخاصة بها، وكانوا مخولين في بعض المقاطعات أن يتزاوجوا من نساء الطبقة العليا.

وكان الزابوتيك يمتازون بميزة خاصة بهم هي اعتقادهم بإله أعلى كانت تطلق عليه مجموعة من الأسماء على مايبدو. ومن بين الآلهة الهامة عندهم يمكننا أن نذكر «خالق كل الحيوانات» و«خالق بني الإنسان والأسماك». وإله الأرض، وهو إله غامض شيدت له المعابد الأكثر قداسة وكان الزابوتيك يطلقون عليه لقب «قلب المملكة». وهنالك إله المطر وإله المحاصيل وإله التجار والثروات وآلهة الفقر والشهوة والأحلام والعالم السفلي.. إلى غير ذلك.. ولا نجد أية اشارة الى عبادة الشمس. وكان يوجد إضافة الى ذلك آلهة شخصية حامية عديدة بطبيعة الحال تمثلها أصنام، وآلهة ترعى أيام السنة المختلفة كما ترعى الجهات الأصلية الأربع، وكانت هذه الأخيرة هامة جداً ومن المناسب أن نقدم لها هذا الوصف المختصر:

كان الزابوتيك يقسمون سنتهم الطقسية إلى مائتين وستين يوماً تضم أربعة أحقاب يتألف كل منها من خمسة وستين يوماً ترتبط بوضوح بالجهات الأصلية الأربع. والأسماء التي أطلقوها على الآلهة المسيطرة

على هذه الأحقـاب وعلى الجهات الأصليـة الأربـع كانت تدل على «الله» وعلى «إلـه المطـر». ويمثلهـا مخطـوط قديم على الشكل التالي: الإله الأول من بينها هو إله المشرق، وهو يعتمر قلنسوة أو قناعاً وله رأس تمساح ويعتبر إلهاً خيراً كما أنه إله الخصب. والثاني إله الشمال له ما يشبه القناع وجمجمة ميت. ولإلـه الغـرب رأس حيـوان مجهـول بينما لإله الجنوب رأس صقر. وثمـة وجـه خامس أيضاً يمثل مركز العالم ويحمل ألوان السماء الليلية وألوان الغسق، والرموز التي تحيط به تشير إلى الحرب.

أمـا التقـويم والكتـابة الهير وغليفية اللذان أثارا معضلات دقيقة فإنهما مشتقان بدون أدنى ريب من تقويم المايا ومن كتابتهم الهير وغليفية.

فهـل يوجـد هنـا شكل ممسوخ عن المايا أم أن المايا أكملوا النظام البسيط الذي استعاروه من الزابوتيك؟. إن هذه الفرضية الأخيرة هي التي تبـدو أكثـر احتـمالاً من حيث الظـاهـر فقـط. فالـزابوتيك لم يكونوا يعـرفـون إلا تقويماً طقسياً مقسوماً كما قلنا إلى أربعة أحقاب يتألف كل منها من خمسة وستين يوماً، وينقسم الحقب بدوره إلى خمس زمر كل منها ثلاثة عشر يوماً. وكما كان الأمر عند المايا كانت توجد هنا خمس وعشرون إشـارة تدل على الأيـام. وقد توصـل أحد العلماء النابهين حديثاً الى أن هذه الإشـارات عنـد الـزابوتيك إنما تشكل حلقة متوسطة بين تسميات الأزتك وتسميات المايا على الرغم من وجود خلافات ليس لها في الظاهر أي تفسـير. والاستنتـاج الوحيد الذي يمكن الوصول اليه هو أن تقويم الـزابـوتيـك يمثـل مرحلة انتقال بين تقويـم المايا وتقويم الأزتك، كما أن الكتـابـة الهـير وغليفيـة تمثـل هي نفسهـا أيضـاً مرحلة انتقـال. وبينـما

الأعداد ترسم دائماً بحسب ترقيم المايا فإن الكتابة الهير وغليفية تختلف تمام الاختلاف .

ومع ذلك ، فمهما كانت حضارة الزابوتيك هذه جذابة ومثيرة للاهتمام فإن أهميتها تكمن في نظرنا في أنها كانت مدعوة لأن تلعب دوراً في تاريخ أمريكا الوطنية . فقد كان الزابوتيك والميكستيك وسطاء بين المايا وبين القبائل التي كانت تعيش إلى الشمال والغرب من واكساكا ، وكانت ثقافتهما تضم العناصر الأساسية من المرحلة التالية لتقدم المايا نحو الشمال ، وهذه الرحلة هي التي تمثلت بالشعوب التي حملت اسم التولتيك TOLTEQUES .

والتولتيك يمثلون التبدلات الأخيرة المثيرة التي لحقت بحضارة المايا الأصلية . فقد وصل من المايا ثلاث موجات واضحة تلاقت كلها في ولاية فيراكروز، أطلق على الأولى منها اسم الموجة القديمة لتدل على الركيزة الثقافية القديمة التي حملت معها الزراعة والخزف ومهنة النسيج وآلة النسيج . وأما الثانية فقد تمثلت بغزو المايا أنفسهم ناشرين معهم الكتابة الهير وغليفية في كل المنطقة التي كان يحتلها التوتوناك تقريباً . والثالثة وهي أهمها بدأت نقطة انطلاقها من بلاد الزابوتيك والميكستيك ، ولابد أن مركزها كان واكساكا ومنه انتشرت أولاً وفي عصر قديم نحو تيهواكان وشولولا في ولاية بويبلو وكذلك نحو تخوم الغيريرو والواكساكا ثم بعد ذلك إلى الغرب من ولاية فيراكروز. وقد تلاقت هذه الموجات التي قدمت من كل الجهات في وادي مكسيكو. والى الشمال والغرب خُلق مركز هام آخر في ميشواكان ونفذت حضارة التولتيك إلى مناطق زاكاتيكا ودورانغو وجاليسكو الغربية . وأخيراً ، وتحت مظهر آخر ولكنه مطابق في منحاه ، بلغت سينالوا وسونورا ، ومن هناك دخلت مظفرة الى الجنوب الغربي من الولايات المتحدة وبقيت

حية بكل وضوح في أرقى الحضارات التي انتشرت الى الشمال من ريوغراند وهي حضارة هنود البويبلو.

وفي كل هذه المنطقة الواسعة تشهد الكشوف الأركيولوجية وبشكل لامراء فيه على قرابة تربطها بفن المايا، فالأهرامات والنحت ووسائل الزينة والخزف كل ذلك إنما استُلهم من المركز الفني الكبير الواقع في الجنوب. ومما لا شك فيه أن التنفيذ هنا كان أدنى من الأصل، فالمعابد لم يعد لها قباب، وفن البناء باللبن المجفف بالشمس والملصق بالملاط حل محل البناء بالحجارة المشطوفة. وتوجد اهم اثار التولتيك هذه في شولولا وسان جوان تيوتيهواكان وكزوشيكالكو وتولا.

ففي شولـولا بالقرب من بويبلو توجد مجموعة من التلال MOUNDS التي كانت تعلوها في الماضي معابد. كما توجد مدينة مقدسة هي موطن البطل الممدّن كيتزالكواتل، وتشتهر بتمثيلها البديع للثعبان الرائش كما تشتهر بخزفها المتعدد الألوان الذي يقدم أجمل النماذج المعروفة في المكسيك.

وتمتلك سان جوان تيوتيهواكان القريبة من مكسيكو كما رأينا هرمين كبيرين لكل منهما أربع من المصاطب المتدرجة كما تمتلك طريقاً تحيط به اهرامات أصغر. وقد وجدت فيها أيضاً أشياء منحوتة ذات حجوم ضخمة. ولكن أهم الآثار المميزة في هذ المكان أحجار منحوتة تم اكتشافها حديثاً وتزين ثلاثاً من جهات المعبد الذي يتوج ما يسمى «هرم الشمس». وقد حافظت الألوان على بهائها تماماً كما أن رؤوس الثعابين الرائشة وفراشات صنعت من الأوبسيديين حافظت كلها جزئياً على مارصعت به من الأوبسيديين الذي يمثل فيها العيون. أما التماثيل الصغيرة واللعب ذات الأطراف المتحركة التي صنعت من الخزف فهي الأخرى من مميزات هذا المكان.

وتعتبر كزوشيكالكو القريبة من كويرنافاكا واحداً من هذه التلال MOUNDS ، وفيها باحات ومدرجات واهرامات ، وأحد معابدها مزين بثعابين كبيرة رائشة وشخصيات جالسة وكتابات هيروغليفية .

أماتولا فتقع على ثمانين كيلومتراً إلى الشمال من مكسيكو. وفيها عدد كبير من المنحوتات والأعمدة الكبيرة المزينة بالثعابين الرائشة والوجوه العملاقة ويعلوها تيجان حقيقية . وهي تذكرنا من الناحية المعمارية بشكل صارخ ببعض الأبنية الموجودة في شيشين إيتزا في يوكاتان .

وقد أصبحت حضارت التولتيك هذه فيما بعد مهمة جداً لدرجة أنها انتشرت بدورها في واكساكا تاركة طابعها على ميلتا ومؤثرة حتى في الموطن الثقافي القديم لشيابا ويوكاتان . ويبدو أن هؤلاء التولتيك كانوا يختلفون في نقطة أساسية عن الجماعات التي تشكلت منها غزوات المايا الأولى . فنحن نفترض بحق أن هجرات المايا الثقافية القديمة كانت تتألف خصوصاً من المايا أو على الأقل من أجناس يحملون فيهم نسبة كبيرة من دماء المايا . ولكن التولتيك لم يكونوا بالتأكيد من المايا لا من حيث الجنس ولا من حيث الثقافة ، فهم شعوب همجية قدموا من الشمال وتبنوا حياة حضرية بتأثير من المايا ، ويمكننا أن نذهب إلى حد التكهن بأن هؤلاء البرابرة كانوا يمثلون الفروع المتقدمة من الناهواتل أقرباء الأزتك القدماء الذين احتلوا فيما بعد كل منطقة تلاكسكالا ووادي مكسيكو.

وهكذا انتقل مشعل حضارة المايا من يد قبيلة الى يد قبيلة أخرى حتى تم غزو المكسيك والولايات المتحدة بهذه الحضارة غزواً كاملاً . فعلى طول خليج المكسيك وحتى فيراكروز ، ومن هناك عبر البحر حتى مصب الميسيسيبي ، وعن طريق البر عبر مناطق شيابا وواكساكا ووادي مكسيكو وميشواكان وجاليسكو وشيهواهوا حتى الأريزونا ، وفي

المكسيك الشمالية وكولورادو واوتاه، على كل هذه المساحة الواسعة امتد فتح هذه الحضارة. فقد هاجر نظام اقتصادي حقيقي الى الولايات المتحدة وتبع ذلك نتائج عجيبة. فالقبائل الهمجية الرحالة ذات القربى بالكومانش والأوت ـ وهي شعوب بدائية جداً ـ ما لبثت أن شعرت ببصمة ثقافة التولتيك، وعندما انتقلت الى الجنوب صار يطلق عليها اسم قبائل الناهواتل الشهيرة والأزتك، ومنذ عام ٦٠٠ للميلاد لم تنقطع قط حركة الذهاب والإياب.

أما مايتعلق بالولايات المتحدة فقد برزت فيها نتيجة لهذه الغزوات كبيرها وصغيرها منطقتان ثقافيتان متميزتان إحداهما في شرقي الميسيسيبي وتعتمد على إسهامات المايا وتمثل في بعض مناحيها إرثها المباشر لهم، والثانية في الجنوب الغربي من الولايات المتحدة تقوم خصوصاً على مؤثرات التولتيك وبصورة غير مباشرة على مؤثرات المايا على الرغم من وجود إسهامات أقدم من ذلك تتضح فيها تمام الوضوح. وهكذا فإن الجذرين الرئيسيين اللذين سيطرا على حضارة الوطنيين من سكان الولايات المتحدة هما بناة التلال MOUNDS في الشرق وسكان الأجراف في الغرب. وعن هذين الطريقين تمدنت أمريكا البدائية. ولكن الروابط التي كانت تربطها بأكبر منابع الثقافة الوطنية أصبحت تضعف وتتراخى شيئاً فشيئاً حتى انتهت بالاختفاء تماماً في غابات كندا، ثم ما لبثت أن سيطرت قاعدة الاصطفاء.

الفصل السادس

فتوحات الإله الشمس

يروي لنا المؤرخ مونتيسينو أنه قبل عصر الإنكا وعندما كان هويراكوشا يقوم بإعادة بناء كيتو سمع حديثاً عن شعب محارب كان يعيش على الجانب الآخر من سلسلة الجبال التي تمتد من سانتا ماريا حتى مضيق ماجلان، فرغب فوراً بأن يخضع هذا الشعب لسلطته. ومن اجل أن يحصل على معلومات في هذا الموضوع كلّف ستة من القواد مع عدد كبير من الجنود بأن يذهبوا إلى هذه المنطقة. فأطاع هؤلاء وتوجهوا إلى هذه الشعوب التي كانت تعيش في الغابات على ضفاف الأنهار الكبيرة. وكان هؤلاء الوطنيون يكادون يكونون عراة تماماً من كل ثياب. إلا أن البيريين لم يتمكنوا منهم لأن قوتهم كانت ضعيفة نسبياً فما لبثوا أن تفرق شملهم. أما العائدون منهم إلى كوزكو فقد رووا الى الملك الكبير كل ما شاهدوه فعدل عن كل محاولة ثانية لإخضاع هؤلاء القوم. ومع ذلك فإن هؤلاء البرابرة الذين كان يفترض أنهم منيعون في الظاهر على

الحضارة الرائعة التي كان يمثلها هويراكوشا كانوا قد تأثروا في ذلك العصر بإشعاعاتها الخيرة. وما لبث كثير من عناصر هذه الثقافة البيرية الإنكاوية وما قبل الإنكاوية أن نفذ اليهم خلال السنين التالية عبر الجبال المغطاة بالغابات الكثيفة حتى وصل الى شواطيء الأنهار.

وبعد وقت قصير من إرسال جيش الاستطلاع الأولي عن أحوال هذه الشعوب البدائية قام هويراكوشا بحملة توسعية أخرى على الغواياكيل الذين كانوا يسكنون الساحل ومعه في هذه المرة جيش قوي قدير. ويروي المؤرخون «أنه مضى منشرح الصدر على الرغم من صعوبة الطريق لأن نبوءات حسنة جداً كان قد استنتجها العرافون على أثر الأضاحي التي قدمها قبل المضي في المشروع. وكان ذلك على الأقل هو ما صرح به الكهان الذين كان عليهم أن يفسروا أحشاء الحيوانات الضحايا. وقد مر على قرى كالاكولي وبولولاغا، وآثار الطرقات التي بناها لا تزال ماثلة للعيان وتملأ قلوبنا بالدهشة والإعجاب».

وفي خلال هذه الرحلة المليئة بالأخطار كان يوجد الكثير من العوائق الجغرافية التي يجب التغلب عليها، ففي أحد الأمكنة كان ينبغي بناء جسر حباله من أغصان السوحر (نوع من الصفصاف). وعندما انتهوا من صناعة الحبال لاحظ الملك والخيبة تملؤه أن النهر كان عريضاً جداً وعيقاً جداً ومندفعاً جداً وأن كل ما بذله من جهد كان على غير طائل. وعندما اقتنع أن من المستحيل عليه أن يبني جسراً قوياً بما فيه الكفاية أمر ببناء أطواف من خشب خفيف لاجتياز النهر. وما أن انتهى الجنود من بناء هذه الزوارق حتى ركبوها ودخلوا مباشرة في نزال مع العدو المتمركز على الضفة الأخرى. ودامت المعركة أياماً عديدة وجرت سجالاً تارة ينتصر هؤلاء وتارة هؤلاء بحسب تيار النهر. . . وأخيراً

أصـدر هويراكوشـا أوامـره إلى قواده بأن يهاجموا على كل الجهات في الـوقت نفسـه . وكـان يمكن لهذه الخطة ان تفشل هي الأخرى لولا ان تبت المنازعات في صفوف الاعداء الذين أرسل الزعيم الرئيسي بينهم برسل إلى هويراكوشا ليعلموه بخضوع رئيسهم مع قطاعه إليه . وعندما علم حلفاء هذا الزعيم بما فعله حليفهم عادوا الى قراهم وتركوا الميدان مفتـوحـاً أمـام الإنكا الذين نزلوا على الشاطيء الأخر بدون صعوبة في المكـان الـذي تنتصب فيـه حالياً مدينة غواياكيل . وقد أنعم هويراكوشا بكـل أنواع العطاء على الزعيم الذي استسلم له لأنه لولا مساعدته لما أمكنه في الغالب أن يخضع كل هؤلاء السكان الذين كانوا يستقرون في هذه الأراضي التي أقيمت عليها مدينة غواياكيل .

وهكذا مد ملوك الإنكا وما قبل الإنكا حضارتهم البيريّة الى كل الجهات . ومع ذلك فإن فتوحات الإنكا في تاريخ أمريكا الوطني تختفي أمام الفتوحات التي قام بها أسلافهم من قبل . ففي الحقبة القصيرة التي سجلوا فيها سيطرتهم والتي لا تمتد إلى أكثر من أربعة قرون كاد الانكا أن ينشغلوا حصراً بمد سلطانهم على الشعوب التي سبقتهم . وكانت تلك مهمـة واسعـة في حد ذاتهـا حتى شغلت كل وقتهم وكـانت قد أوشكت على الانتهاء عندما وصل الاسبانيون الى هذه البلاد وكل آثار الحضارة التي تمثل في مختلف درجاتهـا ما قام به الـوطنيـون في أمريكا الجنوبية الى الشرق من جبال الآند وعلى الأمازون وكل من خضع لهم من الشعوب ليس مردها إلى الإنكا وإنما الى من سبقهم من السكان . ولم يتجاوز الإنكا حدود هذه الفتوحات الا في بعض النقاط .

وثمة دلائل عديدة تثبت لنا أن هذه الحضارات السابقة للإنكا في بيرو والإكـواتـور وبـوليفيا كانت قديمة جداً . فموثرات المايا مثلاً تعود الـى حوالي عام ١٠٠ ق . م . وقـد وصـلت هذه الحضـارات ما قبـل

الإنكاوية ما بين القرنين الثالث والسادس للميلاد، سواء على الساحل أو في الجبال، إلى نضج كامل وامتدت نحو الشمال والجنوب، واجتازت الأنسد حتى بلغت الأمازون والمنحدرات الشرقية لهذه الجبال العالية ووصلت حتى سهول شاكو الأرجنتينية الجرداء.

وكما كان الأمر في المكسيك وفي أمريكا الشمالية فإن علينا أن نعتبر الحضارة البيريّة هنا على أنها منبثقة في مسيرتها من غزوات متتالية. والاختلاف الأساسي بين ماضي الثقافة الوطنية في أمريكا الشمالية وبين ماضي الثقافة الوطنية في أمريكا الجنوبية يكمن في أن الغزوات الأولى في الجنوب حملت صفة أقل حسماً وأقل مأساوية. فمن الخطأ أن نتصور جيوشاً مسلحة خرجت من بير و واجتازت البلاد من أجل أن تحمل حضارتها الى برابرة البرازيل. بل ان الأحرى بنا أن نتصور انتشاراً سلمياً مستمراً للعناصر الحضارية يشبه ما شهدناه عند أسكيمو آلاسكا عندما احتكوا بهنود الساحل الشمالي الغربي من أمريكا الشمالية.

ولا بد أن الحضارات البيريّة قد قامت في عصر قديم جداً من تاريخها بنشر الزراعة والخزف بين بعض شعوب البرازيل البدائية كالأراواك ARAWAk والكاريب KARIB والتوبي غواراني TUPI-GUARANI. ومع ذلك فإن الغابة العذراء هنا أيضاً والبرابرة القدماء ملاّك الأرض لم يتركوا عناصر الثقافة البيرية سليمة دون مساس مدة طويلة من الزمن فما لبث أن تعدلت وتبدلت ولحق بها التفكك والانحلال.

وعلى الرغم من أننا نجد في البرازيل الشرقية مثلاً أساطير بيريّة حقيقية وعادات نموذجية مصدرها بير و ومثل صيد الرؤوس البشرية فإن ذلك لم يكن قط هنا إلا أصداء بعيدة لهذه الحضارة القديمة الكبرى

المختبئة بين وديان وصخور بوليفيا وبيرو. وليس وجودها هنا دلالة على غزوات ثقافية جديدة كما كان الحال في أمريكا الشمالية كما رأينا. فقد احتفظت الشعوب البدائية في أمريكا الجنوبية دائما بزراعتها وخزفها وهما عنصران نجدهما دائماً مجتمعين في أمريكا ولكنها لم تطورهما بعد ذلك قط. ولم تكن الزراعة تمثل عندهم أبداً هذه الأسس الثقافية العديدة التي رأينا وجودها في امريكا الشمالية من احتفالات معقدة وطقوس ووحدة سياسية وحكومية، حتى ليمكننا التأكيد بأن السكان المحليين - على الرغم من الزراعة - لم يصبحوا قط في البرازيل حضريين حقيقيين. وعلى الرغم من الضغط الدائم الذي كان يصلهم مما وراء الأنـد فإن هؤلاء البرابرة كانوا يميلون أبداً لأن يرتموا في عاداتهم القديمة من جديد.

ولكن ثمة استثناءين لابد من ذكرهما. فبعض قبائل الأراواك خضعت لتأثير مزدوج قادم من المايا ومن البيريين السابقين للإنكا. فقد هاجر هؤلاء الأراواك الذين يسمون بالتينو TAINO الى جزر الهند الغربية وبخاصة الى أوسعها وأنشؤوا هناك حضارة متقدمة بعض الشيء امتازت بنحتها على الخشب وخزفها وتنظيمها الاجتماعي المعقد. وقد مارس هؤلاء التينو نفوذهم بدورهم على الهنود القاطنين في الجنوب الشرقي من الولايات المتحدة.

والاستثناء الثاني هو ذلك الازدهار غير الطبيعي الذي قدمه لنا الخزف المكتشف على المجرى الشرقي من نهر الأمازون. فهنا في بعض القطاعات المتفرقة في الجنوب وجدنا أشياء ذات صفات متفوقة حقاً. والصفة المميزة لهذه الجرار والآنية هي الشكل الإنساني الذي تمثله في أغلب الأحيان. كما أنها مغطاة غالباً بزينات محكمة الصنع. ومن

الصعب أن نفسر وجودها على مثل هذا البعد من بيرو وبوليفيا، وربما كانت البقايا الأخيرة لغزوة كبرى اختفت كل آثارها الأخرى.

ومع ذلك، فإذا كانت حضارات بيرو القديمة لم تمارس إلا نفوذاً ضئيلاً على القسم الأكبر من امريكا الجنوبية الى الشرق من جبال الأنـد حيث لم تنفـذ إلى هنـاك إلا ببـطء فإنها على العكس من ذلك طغت تماماً على المنحـدر الغـربي للكورديير CORDILLÈREوامتدت شمالاً حتى برزخ بنـامـا وجنـوبـاً حتى شيـلي، ولم يكن بإمكان ذلك أن يحدث إلا بفتح حقيقي.

ومما لاشـك فيـه أن الثقـافة الأقدم في بيرو هي تلك التي قامت على ساحـل المحيـط الهادي. فهنا انتصبت مدينة باشا كاماك الكبرى ومعبـدهـا الشهير، والواقع أنه كان يوجد معبدان، أحدهما وهو الأقدم كان ينتصب فوق تلة مشكلة من مصـاطب صنـاعيـة مدرجـة تبلغ مسـاحتها حوالي ٣٢٥ متراً مربعاً ومحاطة بباحة مسيجة واسعة. . وكان يوجـد أمـام مدخله الخـارجي صفـان من الأعمـدة ومجموعة من الأبنية الأصغـر حجـماً. ونـلاحـظ في كل هذه المنطقـة أعـداداً من المـدرجات والاهـرامـات ذات الطـوابق. والى الجنوب من باشاماك كان يقع مركز آخـر هو نازكـا الشهيرة بخـزفهـا، بينما يوجد إلى شـمال باشاماك مركز ثالث هو ترجيلّو التي عُرفت هي الأخرى بفخارها الدقيق الرائع.

وقـد امتـدت هذه الثقـافـات المحليـة على طول السـاحـل نحو الشـمال وتسببت في ولادة مراكـز مختلفـة تمامـاً في إكـواتور وكولومبيا وعند الشيـركي في برزخ بنـامـا. وبعد بدء فتح السـاحل بقليل قامت حملتان أيضـاً باخـتراق الجبـال. ذلـك لأن حضـارة تياهواناكو على بحيرة تيتي كاكا أخذت تظهر فيها فجأة عناصر حضـارية قادمة من السـاحل. فليس من المستغـرب اذن أن تُكتشف دلائـل عن إشعـاع لهذه الحضـارة وصل

حتى الإكـواتـور وكولومبيا في الشمال . ويزداد الأمر تعقيداً أيضاً بوصول مؤثرات ثقافية قادمة من غواتيمالا .

والخلاصة هي أن حضارة شيبشا CHIBCHA الكبرى في كولومبيا وحضـارة الكـوكـا في إكـواتـور إنـما قامتا على أساس من عناصر ثقافية قدمت من ساحل بيرو . وكما كان الأمر مع حضـارة الأزتك فإن هذه الحضـارات حافظت على ما يبدو على العديد من خصائصها القديمة التي أضـاعتها حضـارة الساحل البدائية . والواقع أن بإمكاننا حتى أن نؤكد أنه إذا كانت العناصر الرئيسية من الثقافة الكولومبية تعتبر انعكـاسـات للعنـاصر القادمة من ساحل البيرو فإن ميل الإنكا القوي إلى الملكية المطلقة كان يبدو واضحاً قبل ذلك لدى هذه الشعوب التي كانت تمت للإنكا على كل حال بنسب بعيد .

وقـد ترك لنـا المؤرخـون الإسبـانيـون أوصافاً جيدة للمجتمع الكولومبي وبخاصة مجتمع شيبشا . فعلى رأس الدولة كان الملك الذي يركز بين يديه سلطات ليس لها حدود مدنية وعسكرية في الوقت نفسه ، وكما كان الأمر لدى الإنكـا فإنـه هو الذي كان يعين الكهان ، ولم يكن العامة من الناس يستطيعون أن ينظروا إليه في وجهه وفي حضوره بل كان ينبغي عليهم أن يستديروا أو أن ينحنوا . ولم يكن المبعوثون يظهرون إلا إذا كانـوا يحملون له هديـة أو تقـدمة . وعلى الرغم من عدم ادعائه بأنه ينحـدر من أرومـة إلهيـة فإن ملك شيبشـا كان يحيط نفسه مع ذلك بكل شعارات الملك الإله . فكان عرشه من الذهب المكفَّت بالزمرد . وعندما كان ينتقـل كانت محفتـه مغطاة بصفائح الذهب . وكان يسبقه أفراد من الحـاشيـة يخلون له الـدرب ويمـدون البُسـط وينشرون الـورود على الطـريق . وكـانـت زينـة رأسه من الذهب كما أن زينة أخرى من المعدن نفسه على شكل هلال كانت توضع له فوق الجبين . وأخيراً فإن زينات

فإن زينات أخرى كانت توضع له في الأنف والآذان وكانت كلها من الذهب أيضاً .

وإذا كنا لم نسمع عن ملك أُحيط بمثل هذا الذهب فإننا لم نسمع في المقابل عن ملك كان يتوجب عليه أن يخضع لتجربة قاسية ومذلة كتلك التي كانت تنتظر الوريث لعرش شيبشا . فقد كان على هذا الوريث أن يعيش لمدة خمس سنوات على الأقل بعيداً عن الناس منسحباً إلى معبد لا يجوز له أن يغادره إلا أثناء الليل . وكان يخضع لجلد قاس يتناوب مع صوم شديد . ويؤخذ عليه قَسَم بأن يعترف بأية مخالفة للنظام الذي فرض عليه . وكانت التوبسات والكفارات تتوالى بدون انقطاع وتستمر تعذيبات الجسد بالحرمان وقمع الشهوات أشهراً وسنوات . وأخيراً عندما يقترب يوم التحرر يثقبون له أنفه وأذنيه كي يستطيع حمل الحلي التي أعطته حق حملها طبقته الاجتماعية . وعندئذ يقدم للآلهة صوراً من الذهب ذات أشكال حيوانية .

والخلاصة أنه كان يُحقَّر إلى أبعد الحدود عن طريق هذه التجارب القاسية التي تفرض عليه . وعند التتويج تقام له الاحتفالات الكبرى التي يمكن أن يقال عنها إنها مشاهد من صنع الجن . وحتى بالنسبة للعقول التي أضرمت خيالها حكايات الإلدورادو* EL DORADO فإن هذه الاحتفالات كان لابد لها أن تبدو كأنها تحقيق لحلم أسطوري لاظل فيه من الواقع . وكان الشعب كله يشترك فيها وهو في

---

* ـ الداورادو منجم ذهب أسطوري ادعى اكتشافه في امريكا في تلك الفترة ضابط اسباني وطبقت شهرته الآفاق حتى بات يقرن بجنات عدن .

المترجم

أبهى زينته على ضفاف بحيرة غواتابيتا المقدسة. وكانت الزينات الذهبية تلمع في كل مكان وكذلك الزينات من الريش البراق. وعلى الشاطيء كانت توقد مواقد الأضاحي العديدة ويشحن الهواء بسحب البخور الكثيفة. ثم يتقدم السلطان الجديد وقد مُسح جسده العاري بنوع من التراب المتماسك ورُش فوقه ذرور من الذهب. على أن ذلك ليس إلا البداية لأن رحلة أسطورية تكون له في الانتظار. فيبحر على طوف مزين بالذهب محاطاً بأربعة من الزعماء وعند قدميه تتكدس أكوام من الذهب والزمرد. ثم يبتعد الطوف ببطء وسط هتافات الجماهير وتهليلاتهم نحو وسط البحيرة حيث يغطس السلطان الجديد بالماء ليتخلص من ذرور الذهب الذي كان يغطي جسده. ثم ترمى بعد ذلك إلى المياه المقدسة أكوام الذهب والزمرد التي كانت تتكدس على الطوف.

أما ديانة شيبشا فتظهر لنا بطريقة مؤكدة إلى أي مدى حافظ الإنكا على معتقدهم القديم. فالشيبشا كانوا «أولاداً حقيقيين للشمس». فإلى هذا النجم العظيم كانوا يقدمون الذهب والزمرد والبخور في المعبد الرائع الجمال الذي كان يقع الى الشمال الشرقي من مدينة بوغوتا. ولكن التضحية الأهم كانت تضحية الأطفال الصغار الذين كانوا يُشرون في سن مبكرة من المقاطعات النائية. فبحسب مفاهيم شيبشا الدينية كان هؤلاء الأطفال يُستخدمون وسطاء بين الكفّارات المقدمة عن الذنوب وبين الذات الإلهية المهانة، وكانوا يحاطون بكل مظاهر الاحترام العميق حتى أن أقدامهم ما كان ينبغي لها أن تمس الأرض. وهم يقضون أيام حياتهم القصيرة منشدين في المعبد، حتى إذا ما بلغوا سن الرشد كانوا يقدمون للتضحية فتقدم قلوبهم ودماؤهم للشمس وسط الأناشيد التي ترافقها الأنغام الموسيقية.

ولقد كانت حاضرة الإكواتور القديمة ذات شبه عظيم بحضارة كولومبيا ولكن على مستوى أدنى بقليل، باستثناء ما ظهر من تحف فنية منحوتة في الحجر أو مصوغة من الذهب.

وإلى الشمال من شيبشا تختفي حضارة الساحل الأصيلة مهزومة أمام مؤثرات قادمة من المكسيك، وبالتالي فإن حضارات هذه المنطقة تشكو بوضوح من طبيعة أصلها التركيبي.

وهكذا انتشرت إذن حضارات ما قبل الإنكا القديمة على الساحل وعلى الهضاب العالية ما بين نازكا وبحيرة تيتي كاكا حتى برزخ بناما، وكما لاحظنا في حالة المكسيك فإن بعض الثقافات التحتية قدمت خدماتها كواسطة بين الحضارة الأساس وبين بقية امريكا الجنوبية. أما الدور الذي لعبه زابوتيك واكساكا في نشر ثقافة المايا فقد اضطلع بمثله أهالي شبيشا في كولومبيا بالنسبة لحضارة البير و البدائية. وما فعله بناة التلال الصناعية MOUNDS في منطقة شرقي الميسيسيبي فعله أراواك الشمالي الغربي في البرازيل وفي جزر الهند الغربية.

وإن لمن المناسب أن ندرس الآن ذلك الطريق الذي سلكته الحضارة البيريّة القديمة نحو الجنوب والجنوب الغربي فيما وراء المنحدرات الشرقية لجبال الآند. فقد وجدت لُقىً مهمة على طول الشاطيء الى الجنوب عندما كشفت آثار للزراعة والخزف وأشياء متعددة من النحاس إلى جانب مواد تخص شعباً يكاد يكون بدائياً. ويدل كل شيء على أننا هنا على تخوم مؤثرات بيريّة. ومع ذلك نجد أنفسنا أمام شيء ملفت للنظر هو أننا نصل بعد هذه الثقافة البسيطة الى آثار شعب متطور نسبياً هو الأروكان. ومهما كان مفاجئاً تطور هذا الجنس المحارب الذكي فإن المفاجأة ستكون أكبر عندما نعلم أن تطوره هذا إنما حدث في فترة قصيرة جداً من الزمان.

فعلى العكس مما حدث في بقية امريكا الجنوبية كادت حضارة الأروكان أن تكون حصراً من عمل الإنكا. فلا بد أن فتح هؤلاء كان كاملاً لأننا نجد هنا مساكن واسعة مبنية من الحجارة ومدرجات للزراعة وغرفاً ذات دعائم من حجر واحد وثيابا منسوجة وتربية لحوان اللاما. وهذه الملاحظة الأخيرة تدلنا على أن هذه الشعوب كانت شعوباً رعوية كما كانت شعوباً زراعية. وفي خلال الفترة الوجيزة التي فصلت بين تبنيهم ثقافة الإنكا وبين الفتح الاسباني لبير ونجح الأروكان في نشر بعض عناصر هذه الثقافة التي وصلتهم بعد الأوان بين القبائل الهمجية في الشرق ولعبوا دوراً مهماً في تاريخ المناطق الجنوبية من أمريكا الجنوبية.

أما في الجنوب الغربي على الطرف الآخر من الأند فإننا نجد ثقافة أكثر قدماً بكثير. فهنا وكما كان الأمر في كولومبيا والإكواتور تعود المؤثرات البيرية الى حضارات ما قبل الإنكا وربما الى طور معدّل من حضارة تياهوا كانوا على بحيرة تيتي كاكا. فهذه الحضارة المسماة بالشالشاكي كانت تسود في الماضي على كل الشمال الغربي من الأرجنتين الحالية. وكانت الشمس هنا هي الإله الأكبر وكثر فيها الراقصون المقنّعون. وكانت الزراعةمنتشرة على أوسع نطاق، وبينما كان النحاس دارجاً كان الذهب نادر الاستعمال. والعنصر الأكثر تمييزاً للمنطقة هو خزفها الجميل المتعدد الألوان والمزين بالرسوم. فكل شيء يدل على أن حضارة معقدة جداً وأقدم بكثير من حضارة الإنكا قد سادت هنا.

وقد انتقلت بعض عناصر حضاةر الشالشاكي الى القبائل الهمجية في غران شاكو وانتشرت من هناك في مناطق واسعة من الأرجنتين وباراغواي وأورغواي وفي البرازيل الجنوبية. ومع ذلك فإن

المؤشرات البيريّة في الواقع لم تتجاوز الشالشاكي ، كما كانت في الشمال قد توقفت على السفوح الغربية من جبال الأنند . ففيما وراء جبال كورديير ـ ولنكرر ذلك مرة أخرى ـ ، وفي البرازيل وبوليفيا وغويانا والارجنتين لم يكن يعيش إلا شعوب همجية ، وذلك باستثناء الأراواك الشماليين الذين أتيح لهم أن يروا بعض الانعكاسات الضعيفة من أنوار جنة إلدورادو .

الفصل السابع

ملحمة الهجرة

في تاريخ أمريكا لا يوجد إلا القليل من المواقف المؤثرة التي تشبه اللقاء الشهير بين مونتيزوما السيء الحظ مع كورتيز عندما دخل هذا الأخير مدينة المكسيك. «إنني قلق منذ أيام طويلة» هكذا قال مونتيزوما، «منذ أن ألقيت أنظاري على هذا البلد المجهول الذي أتيت منه، بلد الغيوم، بلد الضباب، لأن أجدادي تكهنوا منذ زمن بعيد أنك ستأتي في يوم من الأيام لتزور وطنك وأنك ستعود في يوم من الأيام لتجلس على عرشك من جديد».

وكان مونتيزوما قد ألمع في مقالته هذه إلى بلد رائع الجمال، في ظل جباله العالية تمتد المياه الزرق في كل اتجاه، وتزهر فيه ورود بيض وتنبثق اسلات بيض أيضاً من بين رمل الشواطيء الرائعة الباهرة. وتشيع بين الجميع أنواع المآكل اللذيذة التي ينال كل انسان منها حاجته. وتنضج النباتات فيه بسرعة بالغة حتى تبلغ أعلى ارتفاع. ويكتسي القطن ساعة نضجه ألواناً رائعة الجمال ما بين أحمر قان ووردي شاحب وأصفر وأخضر. وبرتقالي وبنفسجي ورمادي غامق. ويتكدس الذهب

والفضة والأحجار الكريمة النادرة على الأرض دون أية حراسة لأن أحداً لا يوليها أي اهتمام ولا يقيم لها أي وزن. إلا أن هذه الروائع اختفت منذ زمن طويل عندما قدم جنود مونتيزوما البعيدون الى مكسيكو ـ تينوشتيتلان، وتلاشى كل شيء عندما سافر كيتزالكواتل سلطانها الكبير وترك وراءه هذا البلد الرائع البعيد.

وقد وصل كيتزالكواتل قبل أجيال عديدة الى يوكاتان ماراً بشولولا. وكان ذا مظهر غريب: أبيض الجلد: عريض الجبهة، ذو عينين واسعتين وشعر طويل أسود ولحية كبيرة. ولن ينسى أحد من الرجال قط ما علّمه لهم. فقد طلب منهم أن يحافظوا على العفة وعلى الاعتدال في كل شيء، وعلى ألا يضحوا بالبشر أو الحيوانات بل أن يجدوا مسرتهم في أن تكون قرابينهم خبزاً ووروداً وأزهاراً أخرى وعطوراً وأن يبتعدوا عن الحروب وعن كل أعمال العنف.

إلا أنه كان مقدراً لهذه البلاد الرائعة السعيدة أن تختفي. فقد تآمر ثلاثة من السحرة لم يكونوا في الحقيقة إلا آلهة متنكرين من بينهم تيزكاتليبوكا وهويتزيلوبوشتلي، تآمروا على خلع كيتزالكواتل عن العرش. وكان تيزكاتليبوكا مكلفاً بخداع الملك ـ الإله المحسن. فاتخذ هيئة رجل له رأس اشتعل فيه المشيب واقتحم منزل كيتز الكواتل قائلاً للخدم: «إنني أريد أن أكلم سيدكم». فأجابوه: «ابتعد أيها العجوز فلن تستطيع أن ترى ملكنا لأنه مريض ولسوف يزعجه حضورك».

ولكن تيزكاتليبوكا ألح بقوله: «لابد لي أن أراه».

عندئذ طلب منه الخدم أن ينتظر. وذهبوا ليخطروا كيتزالكواتل بأن شيخاً يصر على رؤيته ويرفض الانصراف. فأجابهم كيتزالكواتل: «فليدخل لأنني كنت أنتظر وصوله منذ أيام». ودخل تيزكاتليبوكا قائلاً للملك المريض: «كيف حالك؟» ثم أضاف أن لديه دواء أتى به إليه.

فأجاب كيتزالكواتل: «أنت على الرحب والسعة أيها الشيخ لأنني كنت أنتظرك منذ أيام، فأنا في أشد المرض وكل جسدي يؤلمني ولا أستطيع أن أحرك يديّ ولا رجليّ». فقال تيزكاتليبوكا «إليك هذا الدواء الذي سينفعك ويشفيك ويجعل الألم بعيداً عنك، فإذا رغبت بشربه فلن تشعر بعدها بشيء لأنك ستشفى ويرتاح قلبك ولا تخشى الام الموت ولا متاعب الذهاب». فسأل كيتزالكواتل: «وإلى أين سأذهب؟». فأجاب تيزكاتليبوكا: «إلى تولانتلاباﻻن حيث ينتظرك شيخ آخر فتتحادثان سوية وتعود مرة أخرى كشاب فتيّ».

وعندما سمع كيتزالكواتل تلك المقالة تأثر قلبه. وألح الساحر العجوز من جديد مكرراً: «إشرب يا سيدي هذا الدواء». فلما رفض الملك عاد الساحر إلى إلحاحه: «اشربه يا سيدي وإلا أصابك الندم، أفرك منه قليلاً على جبهتك على الأقل وتناول جرعة منه».

فحزم كيتزالكواتل أمره على أن يتذوقه وقال: «ماذا حدث؟. إن هذا الدواء لذيذ وصحي، وها أنذا أحس بالشفاء والتحرر من آلامي، ها أنذا قد استعدت عافيتي». عند ذلك أجاب الساحر العجوز: «خذ منه مرة أخرى يا سيدي طالما أنه أفادك وبذلك ستشفى تمام الشفاء». وأخذ كيتزالكواتل يتجرع منه حتى ثمل تماماً وانخرط في بكاء مر وتأثر قلبه واستعد للرحيل لأنه لم يكن يستطيع أن يتخلص من فكرة أن عليه أن يرحل. وهذا ما كان يريد تيزكاتليبوكا وما خطط لخداعه به. فالدواء الذي شربه كيتزالكواتل لم يكن إلا خمر البلاد الأبيض وقد مزج بمادة تدعى التوميتل.

وذهب كيتزالكواتل في رحلته الطويلة، ولكن تيزكاتليبوكا الذي لم يكتف بنجاحه هذا قرر أن يدمّر الشعب الذي كان كيتزالكواتل سلطانه الروحي. وفي أحد الأيام تنكر في زي شحاذ وظهر في ساحة

السوق أمام قصر الملك فيماك، فرأته ابنة الملك ووقعت أسيرة حبه حتى أصابها المرض والهزال ولم تُشف إلا عندما أتوا به إليها وعُقد قرانها عليه. ولكن رعايا الملك شعروا بإهانة بالغة من هذا الزواج: «ماذا؟ ألم يكن بالإمكان اختيار صهر أكثر جدارة بملكنا من هذا الغريب اللعين؟».

وكان الملك يرغب بالتخلص من هذا الصهر المزعج، فأمر رعاياه بأن يأخذوه الى الحرب وأن يتركوه وحيداً حتى يناله الهلاك. ولكن الغريب لم تنطل عليه الحيلة وعاد من الحرب مظفراً حتى أجبر الملك على أن يعترف بشجاعته.

وأخيراً حلت الكارثة. فقد تزين تيزكاتليبوكا برياش توسيفيتل الجميلة وأمر التولتيك بأن يتجمعوا لاحياء احتفال. وقد بدأ بإرسال مناد إلى قمة جبل اسمه تزاتزيتبيك ليدعو الغرباء والسكان البعيدين إلى الاحتفالات الراقصة. فتجمع عدد كبير من الناس في تولا. وعندما التأم الجمع قاد تيزكاتليبوكا الشباب والفتيات إلى مكان اسمه تيكسكالابا فافتتح الرقص هناك وأشرف عليه ترافقه في هذه العملية طبلة صغيرة. ثم غنى بعد ذلك وهو يتلو أمام الراقصين مقطعاً بعد مقطع من الأغنية فيكررونها من بعده رغم أنهم كانوا يجهلون هذا الغناء.

وعند ذلك حدث شيء مذهل رهيب. فمنذ الغسق حتى منتصف الليل كان خبط الأرجل التي لا تُعد يتسارع أكثر فأكثر بينما غدت ضجة الطبلة قصفاً دائماً والغناء الذي كان رتيباً في البدء تضخم بصورة وحشية وانفجر كهزيم الرعود. أما الجمع فقد أصبح ضاجاً صاخباً وبدأ الناس يتدافعون ويعرقل بعضهم مسيرة بعض حتى استحوذ على مشاعرهم ذعر شديد. وكان على مقربة منهم خانق جبلي مخيف ينحدر فيه نهر اسمه تكسكالتلوهكو وعليه جسر كان الناس

يحاولون الفرار فوقه عندما جعله تيزكاتليبوكا ينهار إلى أعماق الوادي بما فوقه من الناس. وكمشاهد غير متأثر بما يجري في عربدته المميتة كان الإله ينظر إليهم وهم يدوس بعضهم بعضاً ويسحقون ويقفزون إلى أعماق الهاوية، فمن سقط منهم مُسخوا الى صخور، ومن نجا لم يدرك قط أن تيزكاتليبوكا هو من كان بفضل سحره وراء الكارثة، فقد كانوا مسحورين يمشون كالثملين وقد حرموا من كل حس.

وفي خلال ذلك كان كيتزالكواتل يتابع طريقه نحو الجنوب. فمكث عشرين عاماً في شولولا ومنها مضى على الطريق نفسه آخذاً معه أربعة من أنبل شباب المدينة. وبعد أن قطع مائة وخمسين فرسخاً وصل إلى بحيرة في احدى المقاطعات البعيدة في الجنوب، وهناك استأذن رفاقه بالانصراف وطلب إليهم أن يبلغوا الجميع أنه سيأتي يوم ينزل فيه قوم من البيض على سواحلهم قادمين من البحر من الجهة التي تشرق منها الشمس.

فهذه النبوءة هي التي ألمع إليها مونتيزوما في كلمات الترحيب المليئة بالبساطة والاحترام التي وجهها إلى كورتيز عندما التقاه.

ولكن ما معنى هذه الأسطورة؟. . أهي واحدة من القصص العديدة التي تناولت العصر الذهبي من حضارة الإنكا وانخدع بها الناس في كل البلاد. أم هي مثال جديد عن مزيج مستعصٍ على الحل شاركت فيه الحقيقة والخيال كما يحدث دائماً في تاريخ العالم؟. لقد تردد العلماء طويلاً في الحكم. وكان معظمهم فيما مضى يميل إلى ألا يرى فيها إلا أمنية مزخرفة، ولكننا في العصر الحاضر أصبحنا نملك من المعلومات ما يساعدنا على الوصول الى حكم أفضل. فهذه الأسطورة مثل غيرها من الأساطير ليست تحريفاً رمزياً لحادث حقيقي. فهي تروي باختصار وتحت شكل ميثولوجي ظهور ثقافة التولتيك التي كنا

تكلمنا عنها في الفصل السابق. وهي ترسم لنا لوحة مزوقة لهذه الحضارة كما كان يراها أحفاد هؤلاء البرابرة القادمين من الشمال الذين أصبحوا أسياداً لهذه الحضارة قبل أن ينتهي بهم الأمر الى تدميرها. فليس الأمر متعلقاً هنا لا بآلهة ولا بأبطال وإنما بشعوب تمور وبحركات ثقافية تزدهر وتزول.

وما يمكن أن يدهش له المرء حقاً ليس التشويه الذي لحق بالحقيقة وإنما هو ذلك الخط العام للأحداث الذي استطاع ان يبقى ويستمر. فمما لا شك فيه أن ثقافة التولتيك إنما قدمت من الجنوب، ثم ما لبثت أن هُزمت وطردت نحو الجنوب من جديد بينما بقيت شولولا مركزاً للتولتيك سواء خلال الحقبة السابقة أو اللاحقة.

فأسطورة كيتزالكواتل إذن ما هي في شكل ما إلا راسب حركة ثقافية واسعة. فتيزكاتليبوكا وهويتزيلوبوشتلي إنما يرمزان الى برابرة الشمال. أما أن رعايا فيماك آخر ملوك التولتيك كان لهم الحق في الاعتراض على الاهانة التي ألحقها بهم زواج ابنة مليكهم من الإله تيزكاتليبوكا الذي كان يتنكر في زي شحاذ، فتلك إشارة عن ردة الفعل الناجمة عن تسللات البرابرة الأولى، كما أن حضور تيزكاتليبوكا في حملة عسكرية إنما يرمز إلى النفوذ المتزايد الذي اكتسبه هؤلاء البرابرة، بينما ترمز كارثة الخانق إلى فناء التولتيك النهائي.

وهكذا يصبح من المناسب ألا نهمل هذه القصص الأسطورية المتعلقة بالبطل الكبير القادم من مقاطعة بعيدة ليحمل الحضارة، ذلك لأن الكثير من الأحداث التاريخية يمكن أن يكون مدرجاً في هذه الأساطير. والواقع إن ملحمة كيتزالكواتل توجد في واكساكا ويوكاتان وغواتيمالا وفينزويلا وكولومبيا وبيرو. وحيثما يتوقف هذا النموذج النوعي للقصة الملحمية يبدأ بالتناقص نفوذ المايا ونفوذ البيريين. وفيما وراء هذا

الحد تنتشر شعوب لم تمسها هاتان الحضارتان الكبيرتان إلا عرضا وبشكل غير مباشر. وثمة صدى بعيد لهذه الفكرة يرن في أساطير هذه الشعوب حيث تتعلق المسألة بأبطال كبار ثقافيين كانوا مؤسسين لثقافتهم. وهكذا تستطيع الأساطير أن تجهزنا بشواهد تستخدم في تأييد المعطيات الأركيولوجية والإثنوغرافية وتمدنا بمعارف عن حركات ثقافية لا يستطيع الأركيولوجي والإثنوغرافي أن يقول لنا عنها شيئا لسوء الحظ.

ونحن نجد في واكساكابين الزابوتيك والميكستيك ـ وهم شعبان كانا وسيطين هامين جداً بين ثقافة المايا وثقافة التولتيك ـ، نجد بطلاً يشبه كيتزالكواتل أعجب الشبه. فقد أتى هو أيضا من الجنوب الغربي عن طريق البحر وقام مثله بتعليم المبادىء النبيلة، ومثله اضطهد وأبعد، وقد تجذّرت تعاليمه والثقافة التي اتى بها بعمق في واكساكا، ويدعي الكاهن ـ الملك الذي كان يحكم لحظة فتح الأزتك لهذه المنطقة على أنه الحفيد المباشر لسلالة هذا الغريب ذي اللحية الطويلة. وكما كان الأمر مع كيتزالكواتل فإن هذه الأسطورة كان لها بدونْ شك أساس من حادث تاريخي محدد. فالحضارة الأكثر رقياً وهي حضارة المايا إنما وصلت إلى واكساكا من الجنوب، كما أن عناصر مميزة من ثقافة المايا كانت قد انتشرت هي الأخرى بين شعوب المنطقة وعلى التوازي مع ما حصل في واكساكا.

وإذا تابعنا نحو الجنوب نجد لدى الشيبشا وفي يوكاتان أساطير عن فوتان وكوكولكان وزامنا الذين هم أبطال قدموا أيضاً من بلاد بعيدة وحملوا معهم حضارة أعلى. ففوتان يرمز بشكل واضح إلى غزوا المايا لشيابا وتأسيسهم مدينة بالينك، بينما كوكولكان يمثل تقدم حضارة المايا الى الشمال من شيشين إيتزا.

أما في أمريكا الجنوبية فتوجد حول الأبطال الثقافيين أساطير

مشابهة أيضاً، ففي كولومبيا نجد وجه موشيكا الذي ينتسب - كما كان الحال مع كيتزالكواتل ونظير يه المكسيكيين - إلى عنصر مميز عن عنصر الشيبشا، وهو الذي أتى إلى هؤلاء بعناصرهم الثقافية، فأدخل فيهم عبادة الشمس وأخضع البلاد إلى ملكين. ولكنه كان له هو الآخر عدو هو امرأته البارعة الجمال، فقد استخدمت كل مفاتنها (ولم ينقصها شيء منها) في تدمير كل خير أقامه زوجها، فكان عليه أن يطردها في النهاية فأصبحت قمر السماء. وعندما أتم عمله كان عليه أن يرحل هو الآخر حيث قضى آلاف السنين في واد جميل يعيش متقشفاً بعيداً عما قام به من مآثر.

وأخيراً نصل إلى بيرو وإلى ديراكوشا. وإليكم هذا النص البيري الذي قدمه لنا المؤرخ جيبزادي ليون عن وصول ديراكوشا:

«كانت الأمور إذن على هذه الحال، الشمس تشرق بكل بهائها من جزيرة تيتي كاكا في بحيرة كالآو CALLAO الكبيرة ويتمتع بها كل انسان. وبعد ذلك بقليل، كما يقال، وصل من الجنوب رجل أبيض طويل القامة كان بهيئته وهيبته يوحي بالطاعة والاحترام. وكان هذا الرجل يتمتع بقدرة كبيرة كان يستطيع بها أن يبدّل السهول الى جبال والهضاب العالية الى وديان ويفجّر الماء من الصخور. وما أن أصبحت قدراته معروفة حتى أطلق عليه لقب خالق العالم وأمير كل شيء ووالد الشمس. ويقال أيضاً إنه اجترح كثيراً من المعجزات الأخرى ووهب الحياة الى الإنسان والحيوان حتى أحس كل الشعب بصنائعه ومآثره. وقد أضاف الهنود الذين قصّوا علي هذه الحكاية أنهم أخذوها عن اجدادهم الذين أخذوها بدورهم عن أغان قديمة وصلتهم من عصور موغلة في القدم. ويقال إن هذا الرجل ذهب نحو الشمال مجترحاً معجزات في رواحه خلال الجبال وأنهم لم يعودوا يرونه قط.

وقـد علّم النـاس في كثـير من الأمـاكن كيف ينبغي عليهم أن يعيشـوا، وكـان يحدثهم في كثـير من الحب والبشـاشـة، ويوصيهم بأن يكـونـوا صـالحـين وألا يصنعـوا السـوء للآخـرين وأن يضمـروا المحبـة والإحسـان للجميـع، وكـانـوا يطلقوا عليه عموما اسـم تيسيفير اكوشا، بينـما في مقـاطعـة كالأو كان اسمـه توابـاكـا وفي أمـاكن أخرى أرناوان ARNAUAN . وقـد بنى النـاس في كثـير من الأماكن معابد وضعوا فيها كتـلا من الحجـر على هيئته وقدموا أمامها الأضاحي، ويقال إن الكتل الحجـريـة الكبيرة في تياهواناكو ترجع الى ذلك العصر. وبرغم ما قالوه من تلك الأمـور التي ذكـرتهـا عن تيسيفير اكوشا والتي هي أعمال شهيرة لديهم فإنهم لا يعـرفـون شيئـا آخـر عنـه ويجهلون ما إذا كان سيعـود مرة أخرى إلى بعض أجزاء هذه المملكة.

وهـم يروون إضـافـة الى ذلـك أنهم رأوا بعـد عهده بمدة طويلة رجـلا آخـر يشبـه الأول ولكنهم لم يذكروا شيئاً عن اسمه. وقد ذكر لهم أجـدادهم ــ وهـم يعتـبر ون ما قالـوه لهـم مؤكـدا ــ أن هذا الرجل كان يشفي المرضى أنى وجدهم ويعيد للعميان بصرهم عندما يتلفظ ببعض الكـلام، وكـان محبـوبـا من الجميـع بفضل ما كان يقدم من حسنات، وبينـما هو يقـوم بهذه المعجزات وصل إلى مقاطعة كانا CANAS بالقرب من قرية تسمى كاشا كان النقيب الاسباني بارتولومي تيزّازا يمتلك فيها مزرعة فمشى الناس الى صاحب المعجزات هذا يهددونه بالرجم فرأوه عنـدئـذ يركـع على ركبتيـه ويداه مرفوعتان إلى السماء كما لو أنه يطلب من الإلـه أن ينقـذه مما يهدده من أخطـار. ويـروي الهنـود أن نارا كبيرة ظهـرت عنـد ذلـك في السـماء وكأنهـا أحاطت بهم فارتجفوا وتهالكوا من الخـوف وسـارعـوا نحـو من أرادوا قتله وهم يلتمسـون عفوه بتضرعاتهم العـاليـة لأنهم كانوا يعـرفـون أن عقاباً سيحل بهم نتيجة للخطيئة التي

ارتكبوها عندما رغبوا برجم هذا الغريب. وعندما أصدر الغريب أمره للنار بأن تنطفىء اختفت النار تماماً وكانوا شهوداً على ما حدث. وتفتتت الصخور لدرجة أن الكتل الكبيرة من بينها صارت تُحمل باليد وكأنها من لحاء شجر هش أو من الفلّين. وهم يروون بهذه المناسبة أيضاً أن الرجل عندما ترك المكان الذي جرت فيه هذه الأحداث وصل إلى الساحل حيث أمسك بردائه ومضى فوق الأمواج ولم يظهر بعد ذلك قط. وبسبب ذهابه واختفائه أطلقوا عليه ويراكوشا ومعناها «زبد البحر».

باستثناء ما يتعلق بالحضارات الكبرى من النادر أن تجد في أساطير أمريكا الجنوبية أو الشمالية بطلاً ثقافياً نصف بشري يقوم بدور المسافرين في الوقت نفسه. فنحن لا نجده إلا مرة واحدة هي المنطقة الوحيدة التي يمكن أن نجده فيها وهي منطقة الميسيسيبي الأدنى. فمن بين كل أساطير الهجرة لا يوجد ما هو أكثر إثارة للاهتمام من تلك التي يرويها المؤرخ الفرنسي دي براتز بعد أن سمعها من حارس المعبد. وعلى الرغم من أنها مزيج من الوهم والحقيقة فإنها تشير إلى حوادث تاريخية تم الاحتفاظ منها بذكرى غامضة يمكن تصنيفها في المستوى نفسه للأساطير التي رأيناها سابقاً والتي سنتكلم عنها فيما سيأتي من حديث:

قبل أن نأتي إلى هذه الأرض كنا نقيم هناك في بلد جميل أرضه صالحة على الدوام. هناك بقي شموسنا (أي أمراؤ نا) لأن سكان البلاد القدماء لم يكونوا يستطيعون أن يتغلبوا علينا برغم ما لديهم من محاربين. فكانوا يصلون حتى الجبال ويخضعون أبناء جنسنا الذين يسكنون في قرى السهل، ولكن محاربينا كانوا يردونهم عند مداخل الجبال ولا يسمحون لهم باختراقها أبداً.

وكانت أمتنا تنتشر على طول الماء الكبير (البحر) الذي يصب فيه هذا النهر الكبير (الميسيسيبي)، فأرسل بعض شموسنا (أمرائنا) أناسا يصعدون مع النهر للبحث عن مكان يستطيعون فيه الاحتباء من سكان البلاد القدماء لأنهم بعد أن بقوا مدة طويلة أصدقاء لهم، انقلبوا خبثاء وكثرت أعدادهم حتى لم يعد بإمكاننا أن ندافع عن أنفسنا تجاههم. فمن كان من أمتنا في السهل لم يكن يرضى لنفسه الخضوع، ومن كانوا قد انسحبوا الى الجبل بقوا تحت طاعة الشمس الكبير (الملك). وكان سكان البلاد القدماء يريدون كذلك ان يجبروا أولئك الذين أخضعوهم من أمتنا أن ينضموا اليهم في محاربتنا، ولكنهم كانوا يفضلون الموت على أن يقاتلوا أخوانهم وبخاصة الشموس (الأمراء).

أما الذين صعدوا على طول النهر الكبير من جهة الغرب فإنهم ما أن رأوا هذه الأرض التي نسكنها اليوم حتى اجتازوا النهر على طوف صنعوه من القصب الجاف فوجدوا البلد كما كانوا يتمنون صالحا لان يختبئوا فيه من السكان القدماء ويسهل الدفاع عنه فيما لو حاولوا أبدا أن يهاجموهم فيه. وعند عودتهم قدموا تقريرهم للشمس الكبير وبقية الشموس الذين كانوا يحكمون على القرى.

عند ذلك قام الشمس الكبير فأخطر على الفور كل سكان السهل وكل الذين كانوا لا يزالون يدفعون عن أنفسهم هجمات السكان القدماء وأمرهم بالذهاب الى هذه الأرض الجديدة وأن يقيموا فيها معبدا وأن يحملوا معهم النار الخالدة وأن يحافظوا عليها هناك. فقدم عدد كبير مع نسائهم وأولادهم، أما الشيوخ والشموس أقرباء الشمس الكبير فقد بقوا مع أولئك الذين كانوا يحرسون الشمس الكبير كما يحرسون الجبال. وقد بقوا هنالك مدة طويلة مثل أولئك الذين كانوا يقيمون على شاطيء الماء الكبير.

وهكذا استقر هنا قسم كبير من أمتنا وعاشوا مدة طويلة في سلام ورخاء خلال العديد من الأجيال. أما الذين بقوا مع الشمس وبالقرب منه فإنهم لم يستعجلوا الانضمام إلينا، ذلك لأن سكان البلاد القدماء لم يكونوا يقصرون كراهيتهم على أمتنا وإنما كانوا أيضاً يكرهون بعضهم بعضاً، وإليك ما تقصه الروايات القديمة عما جرى.

لقد كان سكان البلاد القدماء أخوة كلهم، أي أنهم كانوا ينتمون إلى البلد نفسه. ولكن كل قرية كبيرة كان يتبعها قرى أخرى أصغر منها ويحكمها زعيم يسودها. وكان كل زعيم يحكم على أولئك الذين قادهم وأتى بهم إلى هذه الأرض. وكانت الأمور تجري على ما يرام بين هؤلاء الزعماء ولا يشعر أحد بضغينه على الآخر حتى قام أحدهم يحاول السيطرة عليهم ويجعلهم له عبيداً وتابعين. وهكذا لم يعد سكان البلاد القدماء على وفاق بينهم حتى أن الأمور وصلت بهم إلى الحرب. وقد انضم بعضهم الى أولئك الذين بقوا هناك من أمتنا وتعاون الطرفان على الصمود في وجه الخصوم.

ولم يكن هذا هو السبب الوحيد الذي أبقى شموسنا في هذا البلد. فقد كانوا يحسون بالألم لترك هذه الأرض الطيبة، كما أن مساعدتهم كانت ضرورية لأخواننا الآخرين الذين استقروا هناك كما فعلنا نحن في أرضنا ولأولئك الذين كانوا يسكنون على طول شاطيء الماء الكبير من جهة الشرق. وكان هؤلاء منتشرين انتشاراً واسعاً حتى أنهم ذهبوا بعيداً جداً عن الشمس، وكان من بينهم كثيرون لا يسمع الشمس الكبير شيئاً من أخبارهم إلا كل خمس أو ست سنوات، وكان بينهم أيضاً من هم بعيدون جداً عنا سواء على طول الشاطيء أو في الجزر حتى أننا لم نسمع عن أخبارهم منذ العديد من السنين.

ولم ينضم إلينا هؤلاء الشموس إلا بعد أجيال كثيرة قدموا بعدها

إلى هذا البلد الذي يتمتع بالسلام والهواء العدي، وتمتعنا بكل ذلك حتى تكاثرنا وزادت أعدادنا كثيراً حتى أصبحنا كأوراق الشجر. وقد أتى هؤلاء الشموس وحدهم مع عبيدهم، أما بقية أخوتنا فلم يشاؤ وا أن يتبعوهم وبقوا هناك . . .

على أنه باستثناء هذه القبائل فإن كل الشعوب التي تعيش إلى الشمال من ريوغراند قد نسيت تماماً أن ثقافتها إنما أتتها من الجنوب. وهذا النسيان طبيعي تماماً لأن هذه الثقافة إنما وصلت اليهم عن أحفاد أولئك الذين حملوها، وقد تلقوها في معظم الحالات لا عن طريق العنف الذي ترسخ ذكراه بالذهن وانما نفذت إليهم شيئاً فشيئاً وببطء شديد. ومع ذلك بقيت ذكريات غامضة في المناطق التي كان بقاؤ ها فيها من الأمور الطبيعية في الجنوب الغربي وفي الشمال الشرقي من البلاد. فهنا نجد في الواقع حكايات طويلة عن هجرات موضوعها بيوت هُجرت وجنة رائعة عرف فيها الجميع السعادة فيما مضى ولكنها لا تشير أبداً إلى غريب قدم ليعلمهم قواعد جديدة ويحمل إليهم حضارة جديدة. أما الباقي فقد ضاع في ظلام ميثولوجي غير قابل للاختراق. وقد انطفأت الأصداء الضعيفة تماماً. أما البرابرة وأنصاف البرابرة الذين يعيشون في الشمال فإنهم لا يقتصرون على الشعور بأنهم ما من شيء يربطهم ببقية الانسانية ولكنهم مشبعون أيضاً بتعصب متعجرف ناجم عن قناعتهم بأن الآلهة أنفسهم هم الذين اصطفوهم هم وثقافتهم من العدم.

ومع ذلك، وعلى الرغم من أن هذا الأثر عفى تماماً فإن بإمكاننا أن نكشف عن آثار أخرى لا نكاد نتوصل اليها إلا بكل صعوبة. ففي كل امريكا الشمالية والجنوبية نجد أسطورة يتعلق موضوعها بأخوين هما ابنان للشمس يملؤ ون العالم بمآثرهما. فإذا تتبعناهما من قبيلة لأخرى رأينا تغيراً في هويتهما ودلالتهما. ونحن نميل في الوهلة الأولى لألا نولي

اهتماماً لهذه التعديلات ولكننا إذا درسناها عن كثب تقفز أمامنا ملاحظة مثيرة للفضول هي أن كل هذه التعديلات ما تلبث أن تتوضح دلالاتها أمام أعيننا كلما أمعنا في دراستها.

فكلما تقدمنا الى الشمال ماضين من يوكاتان نرى الأخوين الإلهيين يفقدان صفاتهما ووظائفهما واحدة بعد أخرى حتى إذا ما وصلنا إلى الأوجيبوا في كندا مسخت قصتهما حتى أصبحت مجرد حكاية لتسلية الصغار والكبار. ونجد هذا المصير نفسه يصيب هذين البطلين اذا ماتركنا هضاب بيرو العليا وكولومبيا لنمضي إلى الشرق من جبال الآنـد. فالانحطاط المتمادي للبطل وأسطورته يبدو أنه يتناسب مع آثار الطريق التي رسمها انتشار حضارة المايا والحضارة البيريّة كلاً في السبل التي سارت عليها.

ولنبدأ بالمايا. فالأخوان إلهان أنجبهما أبوان أصبحا فيما بعد الشمسَ والقمر. وقد هُزم الأب أمام سكان كسيبالها التي هي جهنم المايا وقُطع رأسه بعد ذلك. وقد تم الحمل بالطفلين بصورة عجائبية. فلما اكتشفا شخصية أبيهما ذهبا الى كسيبا لها للانتقام له، فلما عادت اليه الحياة أصبح شمساً وأصبحت امرأته قمراً وأصبح ولداه نجمين في السماء. وثمة تفصيل هام آخر يتعلق بالكراهية بين الأبطال وبين أخوتهم غير الأشقاء. وعلى الرغم من أن هؤلاء الأخوة لم يرد ذكرهم في هذه الأسطورة إلا أنهم لعبوا في غيرها دوراً له دلالته.

أما لدى الأزتك فالوضع غامض بعض الشيء إما بسبب النصوص المبتورة التي وصلتنا وإما بسبب رواية أساطير الأزتك المتعلقة بالكون بشكل شديد التعقيد. فأوصاف الأخوين ومغامراتهما هنا يشترك بها عدد آخر من الأخوة كلهم من كبار الآلهة من أمثال

تيزكاتليبوكا وكيتزالكواتل. وهو يتزيلوبوشتلي، وهم يرتبطون كلهم بالشمس بطريقة ما ويتقاتلون بعضهم مع بعض.

وفي الجنوب الغربي من الولايات المتحدة عند الهوبي سنجد الأخوين أيضاً، ولكنهما هنا ذو اقامة صغيرة ولدا من الشمس ومن زبد البحر الذي يعلو رؤوس الأمواج وأحدهما يكبر الثاني بقليل بينما الثاني نشيط وصاحب عزم وتصميم.

وعلى الرغم من أن هذه الوجوه تناولها الكثير من التغيير فإنه ليبدو من المؤكد أن الأمر هنا يتعلق بالأخوين اللذين ورد ذكرهما في أسطورة المايا وبالثاني كيتزالكواتل ـ تيزكاتليبوكا اللذين ورد ذكرهما في أسطورة الأزتلك. وكما هو الحال في عناصر أخرى من عناصر ثقافة الولايات المتحدة فإن نص الهوبي HOPI هو أقرب إلى نص المايا منه إلى نص الأزتلك. ولكن مغامرات الأخوين «ابني الشمس» ـ كما ورد عند المايا ـ تدور في كهوف العالم المظلمة، بينما لم ينزل بطلا الهوبي إلى هذه الكهوف طواعية للبحث عن المغامرات وإنما كانا يقيمان فيها منذ البدء، ولم تكن مهمتهما الانتقام لمقتل أبيهما وإنما هي تخليص الإنسانية من الظلمات التي كانت غارقة فيها، وأخيراً وبكل بطء وبعد الكثير من المحن نجحا في قيادة بني الإنسان من عالم إلى عالم آخر يغمره نور الشمس. وعندما بلغا وجه الأرض كانا مضطرين لقتال الشعوب التي وصلت قبلهم، وعن أسطورة الهوبي هذه يقدم لنا عالم الأجناس الامريكي كوشينغ CUSHING ـ وهو عالم موهوب ـ هذا النص الرومانسي الجميل:

«عندما كان العالم لا يزال جديداً لم يكن بنو الإنسان والحيوان وكل الأشياء على سطح الأرض ولكن في باطنها. وكان الظلام يعم كل شيء في الأعلى والأسفل على السواء. وكان يوجد أربعة عوالم: عالمنا

الذي يقع فوق سطح الأرض، وثلاثة كهوف مطبقة بعضها فوق بعض. ولم يكن واحد من هذه الكهوف من السعة بحيث يضم كل الحيوانات والناس الذين تكاثروا في الكهف الأسفل حتى بلغوا منه الحواف، وكانوا مساكين لا يعرفون إلى أين يتوجهون في حالك الظلام ويصطدم بعضهم ببعض عندما كانوا يتنقلون. وقد غطيت الارض بجيف الذين كانوا يسكنونها ولا يستطيع أحد أن يبصق دون أن يؤذي من هو قريب منه. وكان كل شخص يملأ المكان بشكواه وتقززه وتساؤلاته عن النتيجة والمآل.

وكان الرؤساء يقولون: «لا يمكن لهذا أن يدوم» أو «ما العمل لتحسين هذا الحال» أو «فلنحاول أن نفعل أي شيء». وقال أخوان، بكر وصغير: «فلنحاول وسيكون كل شيء على مايرام. وإذا أردنا تحسُّن كلُ شيء». هكذا تحدث «الاثنان» إلى رؤساء وكهان أولئك الذين كانوا يسكنون في الكهف. ثم قام «الاثنان» بثقب سقوف الكهوف ونزلا الى الظلام حيث يسكن بنو الانسان والكائنات وهنالك قاما بزراعة مختلف أنواع النباتات التي ترتفع في نموها عالياً على أمل أن يبلغ بعضها الفتحة التي نزلا منها وتكون من القوة بحيث تتحمل ثقل بني الإنسان والكائنات الذين سيتسلقونها عندما يتم ذلك فيصلوا عن طريقها إلى الكهف الثاني. وأخيراً، وبعد العديد من المحاولات، ارتفع أحد الجذوع حتى بلغ رأسه الفتحة وكان من القوة بحيث استطاع أن يتحمل ثقل من تسلقه إلى الأعلى. وكان مؤلفاً من قطع متماسكة تسمح بتسلقه بكل سهولة وكأنه سُلّم وبقي على هذه الحال منذ ذلك الوقت وما زلنا نراه حتى اليوم على طول كولورادو.

وقد تسلق هذا الجزء كثير من الناس والحيوانات الى الكهف الثاني. ولما أصبح بعضهم في الأعلى وجدوا الكهف الثاني مظلماً بحيث

لم يستطيعوا أن يقيسوا مساحته فخافوا من أن يكون صغيراً فلا يتسع للجميع فهزوا سلم الجذع الذي كان يتسلقه العديد من الكائنات فسقطوا كلهم على أرض المغارة التي كانوا فيها . ثم بعد ذلك سحبوا السلم كله كي لا يستطيع أي كائن بعد ذلك أن يتسلقه أبداً . ويقال إن أولئك الذين بقوا في الأسفل تمكنوا هم أيضاً من الخروج وهم أخواننا الذين يعيشون في جهة الغرب .

وبعد حقبة طويلة من الزمان اكتظ الكهف الثاني أيضاً بساكنيه من بني الإنســـان والحيوان كما كان الحال مع الكهف الأول . وبدأت الخلافات كما بدأت الشكاوى والتذمر . ومن جديد وضعوا الجذع تحت السقف وتخلصوا مرة أخرى . أما أولئك الذين لم يسارعوا إلى التسلق فقد هُزَّ بهم الجذع وتركوا في مكانهم كما حدث في المرة الأولى . وعلى الرغم من أن هذا الكهف الثالث كان أكثر اتساعاً فإنه كان مظلماً كسابقيه . عند ذلك استدعى «الاثنان» النارَ وأوقدا المشاعل حيث بنى الناس على ضوئها أكواخاً وصاروا يتنقلون من مكان إلى آخر .

وبينما كان الناس والحيوانات يعيشون في هذا الكهف الثالث حدثت أمور مزعجة ، فقد غدت النساء مجنونات يهملن كل شيء في سبيل أن يرقصن وينسين حتى أولادهن ، وكن يختلطن ببعضهن بعضاً حتى أن الرجال لم يعودوا يعرفون زوجاتهم ، ولم يكن ثمة نهار بل ليل دائم كانت النساء يرقصن فيه ولا يتوقفن إلا من أجل الذهاب الى النوم . وعندما كان الأولاد يبكون بسبب الجوع كان الآباء يأتون بهم إلى حيث ترقص النساء فتسمع الأمهات صراخهم فيقمن بإرضاعهم ثم لا يلبثن أن يعدن إلى الرقص وينسينهم تحت رعاية الآباء .

وبسبب هذه الفوضى والمضايقات رغب الرجال بأن يتحرروا وأن يمتعوا أنظارهم برؤية النور فصعدوا الى العالم الرابع الذي هو عالمنا

ولكنهم وجدوه مظلماً كما هو حال العوالم السفلى لأن الأرض كانت مغطاة بالسماء كما كانت المغاور مغطاة بالسقوف. ولم يكن الرجال قادرين على التفرغ لأعمالهم إلا على ضوء المشاعل، وقد وجدوا آثار كائن واحد هو سيد هذا العالم غير المسكون، آثار (الشيطان ـ الجثة، أو آثار الموت. وكانت هذه الآثار تتجه نحو الشرق فتبعها الرجال ولكن العالم كان رطباً ولم يكونوا يعرفون ماذا يفعلون في هذه الظلمات لأن المياه كانت على مايبدو تحيط بهم من كل الجهات وكانت الآثار كلها تقود إلى تلك المياه.

وكان بين هؤلاء الناس الذين خرجوا من الكهوف خمسة من الحيوانات هم العنكبوت والصقر والقبرة والقيّوط(*) COYOTE والجرادة. فتكاتفوا مع الرجال لايجاد الوسيلة التي يحصلون بها على الضياء. وتم القرار على أن تكون العنكبوت هي البادئة، فنسجت رداء من القطن الأبيض نشر بعض الضياء الضئيل فاعتبرت العنكبوت أمّنا منذ ذلك الوقت. عند ذلك تزود الرجال بجلد أيّل كامل البياض فجهزوه وصنعوا منه ترساً صبغوه بلون الفير وزفما أن انتهى حتى أخذ يلمع حتى أضاء العالم كله وشحب الى جانبه لون الرداء الأبيض الذي كانت قد صنعته العنكبوت. عند ذلك أرسل الرجال الترس الى الشرق ليصبح الشمس والرداء الى الغرب ليصبح القمر. وكان القيّوط قد سرق من الكهف الأسفل جرّة ثقيلة ثقيلة جداً حتى أنه لم يكن يستطيع حملها فقرر أن يرميها لولا أنه كان فضولياً فأراد أن يعرف ما بداخلها طالما أن النور أصبح مؤمناً للجميع. وهكذا فتحها فانبعث

---

* ـ القيّوط COYOTE ذئب أمريكي صغير.

المترجم

منها كثير من الشرر والقطع الصغيرة اللامعة التي أحرقت وجهه وهي تمر بقربه قبل أن تنطلق إلى السماء لتصبح نجومها، ومنذ ذلك الوقت أصبح القيّوط أسود الوجه.

وعلى أثر هذا الضوء الجديد اكتشف الناس أن العالم صغير جداً وعاط من جميع جوانبه بالماء الذي يجعله رطباً، فتوجهوا إلى الصقر الذي صفّق بجناحيه فأبعد الماء نحو الشرق ونحو الغرب حتى ظهرت الجبال. وعبر هذه الجبال حفر «الاثنان» قنوات جرى فيها الماء وازداد عمقه شيئاً فشيئاً حتى تولدت منه الخوانق الضيقة والوديان. وقد جرت هذه المياه أحقاباً طويلة من الزمن حتى جف العالم شيئاً فشيئاً مع الوقت. ولما صار العالم منيراً وأصبحت الأرض مرئية تمكن الرجال من أن يتتبعوا بسهولة آثار الموت التي قادتهم الى البحر. وكان هذا الموت الأب الأول لنا وصاحب الأمر والنهي فينا لأننا سرنا على آثاره منذ أن خرجنا من مخبئنا في الكهوف. وبالرغم من أن المياه أزيحت فإن الأرض بقيت طرية ورطبة، ومن أجل ذلك مازلنا نرى حتى الآن بين الغرب والمكان الذي خرجنا منه آثاراً غريبة وكثيرة للإنسان والحيوان، ومنذ أن تحولت الأرض إلى منحدر بقيت هذه الآثار محتفظة بشكلها الأول واستمرت على ذلك حتى اليوم».

على هذه الصورة تبدلت آلهة المايا تبدلاً يتسق مع ذكرى حضارتهم التي كانت تنطفىء شيئاً فشيئاً في أذهان الناس.

وقد انتقلت الأسطورة من قبيلة الى قبيلة أخرى بعد أن كان ينالها التعديل بحسب الأماكن التي كانت تنتقل إليها. وقبل اختفائها النهائي وجدنا منها نصاً مثيراً للفضول في منطقة ضيقة معزولة في وسكونسن الشمالية، وهي منطقة لا تزال تسمع فيها أصداء ضعيفة من هذا البهاء العظيم القديم لدى الوينّيباغو في غرين باي.

وكما أن هؤلاء الوينيباغو قد تم امتصاصهم نهائياً أو كاد على يد البرابرة، كذلك انتهى هذا الانعكاس الأخير للإرث الثقافي القادم من المايا على بناة التلال الصناعية MOUNDS وأحفادهم من خلائط الناس لأن يصبح بعيد الشبه جداً عن أصله ونموذجه القديم بمقدار ما كان ينتشر بين غابات كندا وبحيراتها.

الفهرس

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب حضارة الهنود في أمريكا الوسطى والجنوبية والمكسيك مما عرف في أذهان الناس بحضارات المايا والأزتك والإنكا مع كل ما مثلته هذه الحضارات من عظمة وتوهج في فنون البناء والنحت والنقش والصياغة والخزف والأدب والكتابة الهير وغليفية والحساب والفلك والأساطير. ثم ينتقل في القسم الثاني إلى حديث طويل عن تأثير هذه الثقافات بهنود أمريكا الشمالية الذين وجدهم الأوروبيون عند وصولهم في حالة من الصيد والالتقاط وبعض الزراعة ووجدوا في بعض مناطقهم وبخاصة على طرفي وادي الميسيسيبي الأدنى تلالاً صناعية MOUNDS تخفي تحتها آثار حضارة حاول المؤلف أن يردها إلى مؤثرات قدمت إلى هذه المناطق من ثقافة المايا والأزتك كما حاول أن يرد كثيراً من العبادات والمقدسات والأفكار والعادات والأساطير إلى تلك الحضارة لأنها تدل على ذكرى بعيدة ما زالت تسمع أصداؤ ها في عقول هؤلاء الهنود الحمر وتصرفاتهم.

من مقدمة الكتاب

